حضرموت

تاريخ وحاضر المناظر الطبيعية

من جنوب شبه الجزيرة العربية

لوتار شتاين / كارل هاينس بوخو

ترجمة

عبد الفتاح هيكل و محمد سعيد داؤد

مراجعة

اكيهارد شولتس و هاينر والتر



لوتار شتاين / كارل هاينس بوخو

حضرموت

تاريخ وحاضر المناظر الطبيعية من جنوب شبه الجزيرة العربية

ترجمة : عبد الفتاح هيكل ومحمد سعيد داؤد

مراجعة : اكيهارد شولتس وهاينز والتر

تمهيد

لم يمض حتى الآن عشرون عاما منذ ان نالت بلادنا استقلالها . وهذا زمن قصير في تاريخ منطقة ذات حضارة عريقه يعود عمرها الى آلاف السنين . وفي السنوات القليلة الماضية منذ وجود جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حدثت تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية جذرية فى البلاد . فالتحولات الاجتماعية والقوانين التعليمية وبكافحة الأمية — هذا بعض ما نذكره — اصبحت من الأمور العادية فى بلادنا ، التى لم يعرف غالبية مواطنيها منذ عدة اجيال سوى الاستغلال والحرمان من الحقوق . واليوم يفتخر كل يمني بانجازات اجداده الرائعة حيث يرى شواهدها المادية والفكرية باستمرار . تلك هي بقايا السدود الضخمة والصهاريج والكتابات المنقوشة على الحجر وكذلك المدن الغارقة واماكن العباده التي أبهرت الرحالة الاوروبيين الأوائل وكانت هدفا لأبحاثهم الدؤوبة .

ومثلما كان الحال فى السابق فان المسافرين الى هذه البلاد وخاصة الاختصاصيين الدوليين يهتمون بشكل متزايد بالتراث العظيم للممالك القديمة فى الجنوب العربى . ومن حسن الحظ لم يستثن مؤلفا هذا الكتاب من ذلك ، فقد شاهدا التغيرات العميقه خلال رحلاتهما التى دامت عدة شهور فى بلادنا الواسعة المترامية الأطراف . لمسا ذلك فى الخيام بجوار البدو فى نجود والمهره وعلى متن سفن الداو (سفن الصيد الشراعية) لدى صيادى الشحر وكذلك فى القصور القديمة بحضرموت . لهذا لم يرسما صورة شيقة للماضى العريق فى جنوب شبه الجزيرة العربية فحسب بل ايضا صورة حية لليمن الجديد .

مقدمة

يقود هذا الكتاب القارئ الى حضرموت ، احدى المناطق الهامة تاريخيا واثنوغرافيا في جنوب شبه الجزيرة العربية . كما سيجلب اليه بالعبارة والصورة المنجزات الحضارية والثقافية لسكانها الودودين الكرام . فهنا قامت منذ اكثر من الفي سنة حضارة متطورة أساسها الاقتصادى نظام الري والعلاقات التجارية الواسعة . لقد اصبح معروفا لدينا اسماء دول مدن الجنوب العربي القديم وحكامها ، وهذه الممالك هي معين وسبأ وقتبان وأوسان وحضرموت .

ان تسمية حضرموت يمكن تتبعها في التاريخ البعيد . فقد ظهرت لأول مرة في الأنساب التوراتية للكتاب الأولى لموسى تحت اسم « هزارمافيت » كاسم لقبيلة ، ثم نقل هذا الاسم فيما بعد الى المملكة التى نشأت حوالى ٧٥٠ ق . م . واسم حضرموت الذى يشير الى هذه المنطقة الطبيعية حتى الوقت الحاضر هو اسم سامى يفسره علماء فقه اللغه بتباين واختلاق .

لقد قام مؤلفا هذا الكتاب مستقلين عن بعضهما البعض ولأهداف مختلفة في الفترة ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢م بثلاث رحلات الى حضرموت دامت عدة شهور . فكارل هاينس بوخو اهتم كمهندس معمارى بدرجة أساسية بالفن المعمارى التقليدى ، بينما حلل اوتو شتاين ، كاثنوغرافي الثقافة المادية للحضارم واهتم بالتغييرات التي جرت منذ انتصار الثورة وأثرها فى حياة الشعب .

ورحلاتنا الى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كانت غير ممكنة لولا التشجيع الشامل الذى لاقيناه من قبل وزارتى الثقافة والسياحة والتربية والتعليم لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . ونود هنا توجيه شكرنا الجزيل لوزير التربية والتعليم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وللاستاذ عبد الله محيزر مدير المركز اليمنى للابحاث الثقافية والآثار والمتاحف وللمرافقين فى رحلاتنا تلك وكذلك للمضيفين الكرام فى محافظة حضرموت . كما نوجه شكرنا ايضا لهانز هلفريتز الذى ترك لنا صورا تاريخية قيمة جلبها معه فى الثلاثينات من هذا القرن من رحلاته المليئة بالمخاطر في اليمن .

من تاريخ حضرموت (شتاين)

« اقليم اليمن أو الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، الذى اطلق عليه الأوروبيون اسم « بلاد العرب السعيدة » كان فى الأزمنة القديمة متحضرا ومشهورا نتيجة تجارته مع الخارج . ولا يزال هذا البلد يعتبر حتى اليوم أحد الأماكن الغريبة فى العالم بالنسبة للعلماء »

كارستن نيبور ١٧٧٤ م

الدول القديمة

على الرغم من ان الابحاث الأثرية المنتظمة لحضرموت لا تزال فى دورها البدائى ، الا انه يمكن القول اليوم ان هذه المنطقة كانت فى الأزمنة القديمة مأهولة بالسكان . لقد حددت الاكتشافات للأدوات الحجرية التى قام بها العلماء السوفيت بواسطة وسائل الاشعاع الكربونى معالم الحياة بمليون ونصف مليون من السنين . لقد عاشوا كجماعات بدائية من الصيادين وجامعى الثمار فى ظروف مناخية أفضل مما هى عليه الآن . هذا يعنى ان أمطارا غزيرة قد هطلت فى الماضى مما مكن من وجود عالم حيوانى ونباتى أغنى مما هو عليه الحال اليوم . وينطلق الاختصاصيون من ان التغيرات المناخية قد ادت اخيرا الى الجفاف فى جنوب شبه الجزيرة العربية في الالف الاول ق . م . وتشير النقوش المكتوبة بالخط الحميرى والخرائب الأثرية المكتشفة الى نشوء دول فى جنوب شبه الجزيرة العربية لم يفصح عن اصلهما بعد . هذه المجموعات المنظمة التى يطلق عليهما « دول المدن » أو الممالك نشأت فى اعقاب بعضها البعض وكانت ذات تأثير متبادل . فقد قامت ممالك معين وسبأ وقتبان وأوسان وحضرموت (قارن الخريطة رقم ١ ، ص ١٧٩) على اساس نظام الرى المكثف على حقول المدرجات فى أعالى الجبال وعلى نباتات الواحات التى تروى بواسطة المياه الجارية فى الوديان . وقد تم تجميع مياه امطار الرياح الموسمية فى خزانات وصهاريج كبيرة مكنت من رى مساحات زراعية واسعة (زراعة الحبوب وأشجار النخيل والخضروات والكروم . . . الخ) واعتبر سد مأرب فى عاصمة مملكة سبأ من عجائب العالم القديم .

وفي نفس الوقت دجن الجمل ذو السنان الواحد (كاملوس دروميداريوس) فى المناطق الداخليه لشبه الجزيرة العربية فتطورت على أساسه البداوة اى حضارة العرب الرحل مربى المواشي ، وبواسطة هذا الحيوان الداجن القنوع الصبور أى الجمل ، نشأ لأول مرة الشرط المناسب لاختراق المناطق الصعبة الاجتياز والمحرومة من المياه ، كما نال التبادل السلعى فى شكل تجارة القوافل حافزا جديدا من خلال ربط امكانية تربية الجمال من جهة وعدد من سلع الحضارة الراقية للجنوب العربى من جهة اخرى . فعلى هذا الاساس نشأ « طريق البخور » الذى عرف فى التاريخ بانه أحد أشهر طرق التجارة واقدمها . وقد تحدث الجغرافيون والمؤرخون اليونان والرومان باسهاب عن هذا الطريق التجارى .

لقد ربط طريق البخور ساحل المحيط الهندى بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة البر . فهذه المسافة تزيد عن ٢٥٠٠ كيلومتر قطعتها القوافل عادة خلال فترة تتراوح بين سبعين الى تسعين يوما . وغالبا ما الفت الجمال بحمولتها قوافل امتد طولها كيلومترين وقطعت يوميا مسافة تتراوح بين ثلاثين الى اربعين كيلومترا من هذا الطريق الذى بدأ من ظفار مركز كسب البخور (قارن الخريطة رقم ١) مارا بوادى حضرموت الى شبوه العاصمة القديمة لهذه المملكة . وفي نفس الوقت كانت شبوه تربط ميناء قنا المذكور في التوراه « كنعا » والواقع اليوم غرب مدينة المكلا بطريق تجارى يمر خلاله البخور الى الشمال بعد نقله من ظفار بواسطة القوارب التى أبحرت بمحاذاة الساحل .

ومن شبوه اتجه طريق البخور غربا الى « تمنع » عاصمة مملكة قتبان ثم الى الشمال حتى « مأرب » عاصمة مملكة سبأ . ومن هناك عند الحد الشرقى للجبال اتجه نحو « قرناو » ثم الى واحة نجران الغنية بالنخيل . وسار الطريق الى الشمال عبر تبالا ويثرب (عرفت فيما بعد باسم المدينة المنورة) وديدان ، حيث اسس العرب الجنوبيون مجموعاتهم السكنية الشمالية هناك ، ثم الى بتراء مركز الانباط ومنها الى غزه على ساحل البحر الابيض المتوسط . وقد قادت الفروع من بتراء فى اتجاه الأردن الى دمشق وفى الأتجاه الشرقى الى بلاد ما بين النهرين . هذه هى أهم طرق التجارة فى العالم القديم ونعود الآن الى ذلك المنتوج « البخور » الذى حمل هذا الطريق اسمه .

المنتوج هو صمغ ذو رائحة طيبة يستخلص من أشجار برية ويعطى لدى احتراقه رائحة زكية . اعتبر هذا الأريج من مميزات الحياة الالهية حيث لعب دورا هاما فى طقوس

وشعائر الحضارات القديمة . فقد تم تقديم البخور للقرابين فى معابد بابل ونينوى كما هو الحال لدى قدماء المصريين بوادى النيل ، حيث لعب دورا هاما خاصة فى شعائر الموتى . وفى حوالى القرن الثالث ق . م . استخدم اليونان البخور فى شعائرهم ثم تلاهم الرومان فيما بعد . وقد افادنا المؤرخ الرومانى بلينيوس الأب (٢٣ — ٧٩ م) ان القيصر نيرون أمر باحراق المحصول السنوى من بخور الجزيرة العربية اثناء مراسيم تشييع جنازة زوجته بوباء .

وفيما يتعلق بتجارة البخور يمكننا ان نقرأ لدى بلينيوس ما يلي : « بعد جمع البخور من قبل الكهنة ينقل على الجمال الى سبوتا (شبوه) حيث يفتح أحد أبواب المدينة ليتم دخول القافلة . فالملوك كانوا يرون فى انحراف الجمال المحملة عن الطريق الرئيسي جريمة عظمى . وفى سبوتا يأخذ الكهنة حسب الحجم لا الوزن عشر البضاعة كضريبة للرب اطلقوا عليها اسم « سابس » .

لم تنقل عن طريق البخور المواد ذات الرائحة الزكية فحسب بل ايضا سلع تجارية متنوعة كالقمح والأرز وزيت السمسم والتوابل والأقمشة الحريرية والذهب والنحاس وظهور السلحفاة والجوارى . وجاءت بعض هذه السلع من الهند وشرق افريقيا الى جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر ثم نقلت فيما بعد بواسطة الجمال الى الشمال . وفى نفس الوقت ادت الوساطة التجارية الى تبادل الافكار والتأثيرات الفنية بين منطقة البحر الأبيض المتوسط وجنوب شبه الجزيرة العربية حيث يمكن البرهنة عليها حتى اليوم .

زمن ظهور النبى محمد

وفى (٥٧٠ — ٦٣٢ م) قاد فى شبابه القوافل فى طريق البخور بين مكه ودمشق ، كان جنوب شبه الجزيرة العربية بما فيها حضرموت خاضعا للحكم الفارسى . وبتأثير الانتشار الناجح للاسلام عن طريق الفاتحين اعتنق الحاكم الفارسى فى اليمن العقيدة الجديدة عام ٦٢٨ م . أما الى أى حد اكتسب الاسلام قاعدة جماهيرية فى حضرموت فى تلك الفترات المبكرة ، فان المعارف الحالية لم تذكر ذلك بالدقة الا ان اليمنيين انضموا مباشرة وباعداد كبيرة الى القوات الاسلامية كمكافحين فى سبيل العقيدة الجديدة . ومن بين هؤلاء كان طارق بن زياد الذى قاد حملة غزو اسبانيا انطلاقا من شمال افريقيا ، لهذا سمى جبل طارق الذى يشكل شبه جزيرة فى الطرف الجنوبى من اسبانيا باسمه . كما ان الشاعرين المشهورين امرؤ القيس والمتنبى وكذا المؤرخ ابن خلدون ينحدرون من اصول يمنية .

وفى حوالى القرن الثامن الميلادى حدثت هجرة السيد أحمد بن عيسى بن محمد الملقب باعلوى الذى جاء من البصره الى حضرموت . ومن خلال فصاحته وحسن بيانه ومهارته فى التفاوض ساهم فى نشر الاسلام فى حضرموت . ويقع قبرة ذو القبة على منحدر جبلى بين سيئون وتريم حيث يجله المؤمنون حتى اليوم . وبقدوم باعلوى الى حضرموت ازداد نفوذ السادة المنحدرين من سلالة النبى محمد والذين شكلوا الارستقراطية الدينية فى مدن وادى حضرموت حتى قيام الثورة . وبعد ان تمكن السادة من اثبات وجودهم أمام شيوخ القبائل المحليين نالوا ايضا نفوذا كبيرا في التجارة وكمثال على القوة والعزة الاقتصادية والسياسية الكبيرة يمكن الاشارة الى أسرة السيد الكاف ، التى تمكنت عن طريق التجارة فى جنوب شرق آسيا من الحصول على ثروة طائلة ساعدتها على ان تكون ذات صوت مسموع مثل كبار الملاك والتجار فى تريم وسيئون .

حضرموت تحت السيطرة البريطانية

فى يناير ١٨٣٩ غزت بريطانيا العظمى مدينة عدن عسكريا نظرا لامتلاك هذه المنطقه ميناء طبيعيا ممتازا يؤمن الطريق البحرى الاستراتيجي الهام الى الهند ، درة التاج ابريطانى . بذلك بدأت فترة استعمار دامت حوالى ١٢٩ عاما زادت من ثروة وسلطة بريطانيا العظمى فى حين لم تجلب لشعب جنوب اليمن المتواضع سوى الآلام والعوز ، اما المناطق الخلفية لعدن فقد غرقت فى الجهل والفاقة وبقيت حتى نهاية الحكم الاستعمارى منطقة من اكثر مناطق العالم تخلفا وفقرا .

لقد خدمت هذه السياسة مصالح الحكومة البريطانية الهادفة الى خلق منطقة عازلة تؤمن ميناء عدن . فالصراعات القبلية والتنافسات التى قامت بين الأربعة والعشرين السلطنة والأمارة والمشيخة فى المناطق الخلفية لعدن ، خلقت موجه العداء للمحتلين الأجانب فى هذه المنطقة .

سعى وكلاء الادارة الاستعمارية البريطانية عبر رشوة حكام الدويلات الاقطاعية القزمية وكذلك عن طريق توريد الاسلحة الى وضع هؤلاء الحكام تحت نفوذهم ، فمارسوا

بذلك النظام المجرب والموثوق به وهو الحكم غير المباشر . ففي عام ١٨٨٨ م أبرم البريطانيون معاهدة الحماية مع سلطان المكلا القعيطي ، وبعد ثلاثين عاما عقدوا نفس الاتفاقية مع السلطان الكثيري في سيئون فأسسوا بهذا الاسلوب نفوذهم وتأثيرهم على التطور السياسي في المناطق الداخلية .

وفي عام ١٩٣٩ م أنشئ الجيش البدوي الحضرمي الذي هو عبارة عن فرقة سريعة الحركة من المحاربين البدو دربها الضباط البريطانيون لتكون اداة فعالة في مكافحة الانتفاضات المعادية للاقطاع والاستعمار وقد تم تدريب الجنود البدو على التكتيك العسكري الحديث كما أرهب السكان عن طريق استخدام العربات المسلحة والطائرات التي لم تكن معروفة في المنطقة حتى ذلك الحين . وقد اخبرني شهود عيان ان الذعر قد استولى عليهم عندما شاهدوا آثار العربات في الرمال حيث اعتقدوا انها آثار ثعبان هائل .

المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي

كانت عدن مركز نشاط الشعب اليمني من أجل القضاء على الاحتلال الأجنبي البغيض ، ولكن وجدت الى جانب ذلك في قرى ومدن حضرموت قوى معارضة ثائرة ضد الاضطهاد والاستغلال . وفي عامي ١٩٤٣ و١٩٤٦ م عانت حضرموت من مجاعة فظيعة بعد فترة جفاف طويلة . ففي مدينة تريم وحدها مات ٣٠٠٠ شخص جوعا ، لهذا غادر آلاف العمال الزراعيين الفقراء حضرموت الى عدن بحثا عن العمل والأجر . هناك احتكوا بالمجموعات الثورية وانضم العديد منهم الى حركة المقاومة السرية . وفي اعوام ١٩٥١ و١٩٥٦ و١٩٦١ م اهتزت منطقة حضرموت من جراء الانتفاضات الفلاحية ، الا ان جنود (مرتزقة) السلاطين تمكنوا من ضرب تلك الانتفاضات الشعبية ، ولكنهم فشلوا في وقف مد حركة النضال بشكل عام . وفي فبراير عام ١٩٥٩ م أنشئ تحت الاشراف البريطاني « اتحاد امارات الجنوب العربي » الذي ضم ستة من الحكام الاقطاعيين اليمنيين . ان الهدف من قيام هذا الاتحاد هو قمع الحركة الثورية المتنامية التي تغذت من احداث الشمال . ففي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م اسقط الضباط الاحرار الثوريون النظام الرجعي للامام البدر في شمال اليمن ، مما اعطى حركة المقاومة في جنوب اليمن دفعة جديدة . لقد اجتاحت المظاهرات التي لم يسبق لها مثيل مدينة عدن فبرهنت على القوى المتنامية للجماهير الشعبية . وبفخر كبير ذهب ما يربو على عشرين الف يمني جنوبي الى شمال اليمن للدفاع عن الجمهورية الفتية ضد اعتداءات قوى الثورة المضادة . وفي فجر الرابع عشر من اكتوبر هبت الشرارة الثورية الى جنوب اليمن عندما أطلقت اولى الطلقات من جبال ردفان على قاعدة عسكرية بريطانية .

ورغم استخدام وسائل القمع البربرية من قبل الانكليز الذين جهزوا قوة خاصة بلغ تعدادها ٩٠٠٠ جندي لمقاومة نشاط الفدائيين ، فقد امتدت أعمال المناضلين اليمنيين المحبين للحرية كلهيب النار الى جميع انحاء البلاد . فالاعتقالات الواسعة ومنع التجول لم توقف مسيرة المناضلين العاملين في السر والذين وحدوا قواهم من خلال ضم مختلف المجموعات المناضلة في اطار الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل . ويعتبر قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ م خاتمة الكفاح المسلح البطولي للمناضلين اليمنيين .

البحوث والدراسات في جنوب شبه الجزيرة العربية

« ان هؤلاء السادة الشباب الذين يحبون الراحة ومائدة متنوعة من الطعام ويرغبون في قضاء وقتهم في مجتمع النساء اللطيف ، يجب ان لا يسافروا الى الجزيرة العربية » .
كارستن نيبور « في وصف الجزيرة العربية »

على آثار كارستن نيبور

بعد رحلة الاستكشاف العلمي الأولى التي ارسلت في عام ١٧٦١ م بتكليف من الملك الدنمركي والتي لم يعد من اعضائها الخمسة سوى الباحث الشهير كارستن نيبور ، تحركت مجموعة من الباحثين الى جنوب شبه الجزيرة العربية (الى شمال وجنوب اليمن) فبعد مرور اكثر من سبعين عاما على رحلة نيبوز اقتربت الى السواحل الجنوبية بعثات ذات اهداف علمية .

توخت بعثة المسح البريطانية على سفينة البحث « بالينورس » نوايا سياسية ملموسة . وبعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية في عام ١٦٠٠ م سيطرت هذه الشركة على المواصلات البحرية بين المستعمرات في شرق الهند وبين بريطانيا . وقد احتاجت السفن الشراعية السريعة وفيما بعد اولى السفن البخارية الى مكان أمين تلجأ اليه وتتمون منه بالفحم في طريقها الذي تقطعه خلال ثلاثة شهور من بومباى الى انجلترا ، لهذا قدمت الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وبشكل خاص شاطئ عدن الأمان والتموين ومثلت موقعا استراتيجيا للرقابة على البحر الأحمر .

ومنذ عام ١٨٣٢ م تحولت السفينة « بالينورس » تحت امرة الكابتن هينس من البحرية الهندية (والذي أمر في عام ١٨٣٩ م بغزو عدن) في الساحل الجنوبي أمام المكلا وسقطره . وقد نزل الضابطان ى . ر . وليستد وكذلك ث . ى . كروتندن وهما من طاقم السفينة الى مناطق ساحلية كان البرتغاليون آخر من نزل فيها قبلهما في حوالى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . وفي عام ١٨٣٤ م وجد ى . ر . وليستد في منطقة حصن الغراب بقايا الميناء القديم للبخور « قنا » الذي غطته الرمال . وبعد مرور عام على هذا الاكتشاف وصل المذكور برفقة ث . ى . كروتندن الى خرائب ميفعه القديمة . واليوم يطلق اسم « نقب الحجر » على هذه العاصمة السابقة لحضرموت السفلى التي احتلت موقعا هاما على طريق البخور الى شبوه وتمنع .

الرحيل الى حضرموت

يعتبر الألماني ادولف فون فريده أول من استطاع الوصول من الساحل الى الداخل . فقد حاول في عام ١٨٤٣ م متنكرا في لباس مصري الوصول الى قبر النبي هود في وادى حضرموت ، الذي لم يره اوروبي من قبل . وعلى الرغم من ان فون فريده لم يصل الى هدفه المنشود الا انه تمكن من اختراق « الجول » حتى وادى دوعن حيث تم في منطقة صيف التعرف عليه كأوروبي . وبالرغم من سلب كل امتعته فقد اعتبر نفسه محظوظا بعد وصوله الى المكلا بالسلامة . واتهم هذا الرحالة السيئ الحظ بالكذب ولم يصدق احد تقاريره . وفيما بعد نشر البارون ماينرش فون ملتزان مخطوطة فون فريده وفي الخمسين السنة التي تلت بعثة فريده وجد هناك الى جانب فون ملتزان بعض الرحالة الآخرين الذين بحثوا في منطقة الساحل مباشرة مثل (ه . ى . كارتر ، : س . ب . ميلز ، : ف . مون زنجر . . . الخ) أما التوجه الى الداخل فلم يجرؤ عليه أحد .

لقد بقي ذلك حتى عام ١٨٩٣ م محفوظا للبروفسور البرليني ليو هيرش ، الذي سمح له بالتوجه من المكلا الى حضرموت الداخل بعد ان واجه صعوبات كثيرة . وفي حضرموت شاهد كأول رحالة اوروبي مباني شبام الفريدة من نوعها . أما الرحلة الأخرى المتجهة شرقا عبر وادى حضرموت فقد انتهت نهاية غير اختيارية . وقد اغنت ملاحظاته المكتوبة بعناية ومجموعاته النباتية الى حد كبير المعلومات عن حضرموت كما قدمت اوصافه الدقيقة للطرق خدمة كبيرة لمن جاء بعده . ولم تمض عدة شهور على رحلة هيرش حتى رحل الانكليزى « بنت » وزوجته من المكلا الى وادى حضرموت حيث تمكن من الوصول الى شبام .

وفي السنوات التي تلت ذلك تم الحصول على معلومات جديدة من خلال الرحلات التي اقتصر غالبيتها على منطقة الساحل ولم يصل الى شبام سوى ف . ه . لي وارنر في عام ١٩١٨ م : وبالرغم من الأهداف السياسية الاستعمارية للرحلة الجوية الاستطلاعية التي قام بها سلاح الجو الملكي البريطاني من عدن بقيادة ز . أ . كوكسران في عام

١٩٢٩ م فهي ذات أهمية كبيرة في اكتشاف حضرموت . ومن المكلا قامت طائرة بالتحليق فوق الطريق الذي سلكه فريده وهيرش وبنت في رحلاتهم عن طريق الجول الى وادي حضرموت عبر وادي دوعن ووادي الكسر . ولأول مرة نظر الانسان من الجو الى قبر هود المزار المشهور الواقع شرق تريم في وادي المسيله .

لقد قدمت صور ومعلومات هذه الرحلة الاستطلاعية خدمات لا تقدر بثمن للباحثين د . فان دير مويلن وهرمان نسون فيسمان في رحلتهما من المكلا الى وادي حضرموت عام ١٩٣١ م حيث تمكنا من الوصول الى قبر هود عن طريق تريم . وأهم نتيجة لهذه الرحلة هي الخريطة الرائعة التي رسمها فون فيسمان بعد استخدامه لكافة المعلومات والمعارف والتصاميم المتوفرة ، التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا . وقدمت رحلاته فيما بعد (مع د . فان دير مويلن في عام ١٩٣٩ م وكذلك مع أ. لايدل مايسر في عامي ١٩٥٨ / ١٩٥٩ م) مادة عظيمة في مختلف فروع المعرفة . واليوم يعتبر هـ . فون فيسمان من أهم الباحثين لجنوب شبه الجزيرة العربية .

وفي الثلاثينات سادت عدة رحلات اتجه غالبيتها الى حضرموت الداخل حيث سلكت طرقا أخرى وبلغت ذروة عالية جديدة . وتعد من ضمن ذلك الرحلات الثلاث لهانز هيلفريتز (١٩٣٠ ، ١٩٣٣ و١٩٣٥ م) الذي استطاع كأول أوروبي الوصول من الشحر الى وادي حضرموت ثم الى اليمن فكان بذلك أول من وصل الى شبوه القديمة حيث قام بتصويرها . وفي عام ١٩٣٤ م قام هارولد انجرامس وزوجته دورين لأول مرة برحلة من حضرموت الى سيحوت عبر وادي المسيله . وفي نهاية عام ١٩٣٤ م قامت الرحالة الانكليزية فرايا شتارك كأول امرأة برحلة الى حضرموت ، الا انها لم تصل الى هدفها شبوه . وفي عامي ١٩٣٧ / ١٩٣٨ م ترأست المذكورة بعثة الى حضرموت حيث قامت خلال تلك الفترة بأعمال الحفر العلمية الأولى . وتحت قيادة جرترود ف . كاتون — تومبسون تمت أعمال الحفر في معبد القمر قرب حريضه في وادي عمد .

وفي عام ١٩٣٦ م قامت البعثة المصرية بأول مسح جيولوجي شامل لوادي حضرموت والى جانب ذلك تم ايضا ذكر بعثة السيارات التي قام بها هـ . ست . جون فيلبي في عامي ١٩٣٦ / ١٩٣٧ م وكذا البعثات والبحوث الميدانية التي قام بها كل من ف . تيزيجر ، ر . ب . سرجنت ، ب . دويه ، و . دوستال وج . ف . فان بيك من معهد سيمسونيان والسيدة ج . بيرفي وآخرين بعد الحرب العالمية الثانية .

بداية جديدة

لقد تغيرت ظروف البحث العلمي في الجنوب العربي بشكل جذري في السنوات الأخيرة . فحاليا يوجد في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية المركز اليمني للابحاث الثقافية والآثار والمتاحف ، الذي يقوم بدراسة التراث الثقافي الوطني والعناية به ويشرف على متخصصين جاءوا من بلدان عديدة لزيارة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فضلا عن قيامه بتمثيل البلاد في منظمة اليونسكو وفي المؤتمرات الدولية . ويقدم العاملون في المركز المساعدة لعلماء الآثار الفرنسيين الذين يقومون منذ عام ١٩٧٤ م بالحفريات في شبوه على اساس حق الامتياز . وعلاوة على ذلك فان المركز شريك في البعثة الأولى التي نظمت بالاشتراك مع أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي برئاسة فيتالي ناؤمكين والتي احتلت اكتشافاتها في الأيام الأخيرة عناوين عريضة في الصحافة . ويتم الآن تسجيل كل الآثار التي اكتشفت مؤخرا ، كما تحظى مدينة شبام الفريدة من نوعها برعاية منظمة اليونسكو . ورغم المعلومات التي تم التوصل اليها في الاكتشافات الأخيرة فان البحث العلمي لجنوب اليمن لا يزال في بدايته .

صحارى ووديان وجبال : جغرافية حضرموت

«في نفس المناطق ذات الجبال الكثيرة العالية توجد مناطق خصبة للغاية تروى بالمياه المنسابة من أعالي الجبال وكذلك الصحراء».

كارستن نيبور «عن طبيعة حضرموت»

الأسم الأصلي لهذا الاقليم

تغطي الرمال الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية. فالصحارى الجافة في وسط وجنوب شبه الجزيرة العربية تمتد الى الصحارى البرية القليلة النباتات والتي لا يمكن زراعة حقولها دونما رى. لهذا استخدمها البدو كمراعي من وقت لآخر. أما الزراعة المستقرة فكانت في مناطق الأمطار وبشكل خاص في مناطق امطار الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فضلا عن انه بالامكان استخدام المياه الجوفية المخزونة في عمق الأودية. وقد اطلق احد الجغرافيين الرومان اسم «بلاد العرب السعيدة» على هذه المناطق المتميزة في جنوب شبه الجزيرة العربية.. «بلاد العرب السعيدة» هي مناطق الجبال العالية في اليمن (الجمهورية العربية اليمنية) وواحات الأودية في حضرموت الداخل (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية).

تاريخيا اطلق اسم حضرموت على المملكة القديمة التي امتدت من شبوه الى ظفار (عمان)، وجغرافيا تغيرت تلك المسميات والتحديدات باختلاف الأزمنة وبالمعني الضيق اطلق اسم حضرموت على الوادى الكبير الجاف الذى يبعد مئة وستين كيلومترا عن الساحل. وتشير حضرموت الداخل الى كثافة سكانية كبيرة في المناطق الوسطى والغربية وفي الوديان الجانبية (وادى عمد، وادى دوعن، وادى العين، وادى بن على ووادى عدم). هناك يتركز غالبية سكان وادى حضرموت البالغ عددهم حوالى ٣٥٠٠٠٠ شخص (بقية السكان يقطنون الساحل أو الواحات القريبة من الساحل) في مجموعات سكنية ممتالية ومكتظة بالناس وفي مدن هامة. واحدى هذه المدن مدينة سيئون عاصمة حضرموت الداخل. أما المدينة الساحلية المكلا فكانت ولا تزال تابعة لحضرموت الطبيعية. وحتى نيل الاستقلال الوطنى في عام ١٩٦٧ م كانت حضرموت تابعة لما يسمى بـ «محمية عدن الشرقية» حيث كانت سيئون مقرا للسلطان الكثيرى والمكلا مقرا للسلطان القعيطى. ومنذ عام ١٩٨٠ م اطلق على حضرموت، التي سميت منذ الاستقلال بالمحافظة الخامسة، اسم محافظة حضرموت وعاصمتها المكلا.

من الجبال الساحلية إلى الربع الخالي

طوبوغرافيا توجد في محافظة حضرموت خاصة في الاتجاه الجنوبي — الشمالى نفس أشكال المناظر الطبيعية كما يوضح ذلك المقطع من الغرب الى الشرق من خلال الجزء الجنوبى فى شبه الجزيرة الغربية. وتقع جبال الشاطئ خلف السهول الساحلية المختلفة من حيث العرض حيث تتخللها مصبات الوديان. يظهر هذا في بداية المنحدرات لبعض المناطق القريبة من البحر.

تتراكم الجبال عند مدينة المكلا وتسقط مباشرة في البحر غرب منطقة «بروم» وترتفع الطبقة الصخرية قرابة ٢٠٠٠ متر عاليا عن الساحل. هذه هى حافة الجول الذى مثل أكبر عائق امام طرق القوافل الى حضرموت الداخل والذى تطلب ممن يشقون الطريق اليوم امكانيات تكنيكية ضخمة. ويطلق اسم العقبة على الطريق الضيق المشقوق على الجبال، كما أطلق البدو هذا الاسم على الطريق الذى تسلكه القوافل من المكلا الى عقبات جبال خور شيبان. هذا الطريق وكذلك طريق الشحر — وادى حضرموت فقدا اهميتهما اليوم بعد ان تم انجاز الطريق المعبد بالأسفلت والممتد من المكلا عبر الريان الى حوره فى وادي حضرموت.

وكما كان عليه الحال في السابق وجب التغلب على الجول. فهو صحراء صخرية هائلة خالية من السكان (حماده) يعود تكوينها الى العصر الثالث أى عصر تكوين الجبال القديم وتنحدر نحو الشمال الشرق حيث تنتهى شمالا في الكتل الرملية للربع الخالي. وتبدأ غالبية الوديان من الجول ثم تنحدر في الأتجاه الشمالي لوادى حضرموت كوديان فرعية. وبعد اجتياز الجول يصل المرء فجأة الى الحافة العليا لهذا الوادى المنحدرة جدرانه العمودية مسافة ثلاثمائة متر عمقا. والنزول الى الوادى يكون دائما عقبة في احد الوديان الفرعية التي تتكون عند مدخل الوادى الرئيسي من جدران عمودية من الحجر الجيرى ذات قاعدة ورؤوس صخرية.

ووادي حضرموت هو الوادي الثاني الكبير في شبه الجزيرة العربية حيث يكون بوديانه الفرعية العريضة في الشمال والطويلة في الجنوب قطاعا متكاملا . وباتساع مفتوح نحو الغرب تمتلئ هذه المنطقة بالكتل الهائلة الرملية السبعتين . ولا يوجد هنا سوى مجموعات سكنية قليلة على أطراف قاع الوادي المرتفعة بمقدار مائة متر فوق سطح البحر . وجنوبا من مدينة هيثن يصب وادي كسر الممتد حتى شبام في الوادي الرئيسي الواسع الذي يبلغ عرضه ستة الى عشرة كيلومترات . ويمتد وادي حضرموت حوالي مئتي كيلومتر من الاتجاه الغربي الشرقي حتى قسم وينحدر حوالي مئة متر ويضيق اتساعه الى أقل من كيلومترين . وتحت اسم وادي المسيله يسير الوادي بشكل ضيق في الاتجاه الجنوبي الشرقي ليصل الى مئتين وخمسين كيلومترا قرب سيحوت الى البحر . « هنا ينساب نهر ذو مياه صافية خضراء لأميال وأيام متوالية ، حيث تحيط به الحشائش والأشجار . » هذا ما كتبه « انجراسس الذي هو أول اوروبي قطع المسافة بين تريم وسيحوت . واسم وادي المسيله يعني وادي الماء الجاري .

كل طريق الى وادي حضرموت يتم عبر المرور بالجول

اليوم وفي جميع الحالات يختار كل من يريد السفر الى وادي حضرموت المكلا كمنطلق له مع عدم استخدام طرق القوافل القديمة او المسالك الخطيرة المليئة بالحصى والاحجار الصغيرة . اذ بالامكان الطيران من مطار الريان الدولي بالمكلا الى سيئون أو السفر بالسيارة على الطريق الجديد المعبد بالأسفلت . فقبل انجاز هذا الطريق كانت الرحلة عبارة عن مغامرة تتم عبر المرور بالجول كما عايشت ذلك في رحلتي الأولى عام ١٩٧٨ م .

حك أحمد رأسه في حيرة ثم قال : « لقد فقدنا الاتجاه » وضحك حسن . « ورغم ان أحمد قد سافر من هنا عدة مرات ، الا ان هذا لا يكفي لأن الذي يعيش باستمرار على هذه الصحراء يستطيع وحده معرفة وجهها . »

ان نظرة أحمد من خلال نافذة سيارتنا اللاندروفر كانت كافية لمعرفة تردده في اختيار الاتجاه . فالأرض الصحراوية المقفرة تمتد الى كل الجوانب . لهذا لم نتمكن التمييز في الأفق بين الأرض والسماء بسبب وجود الغبار والحر اللافح الصادر عن أشعة الشمس الوهاجة في السماء الزرقاء الباهتة . ولا يوجد سوى بعض الجبال المستوية البعيدة والشبيهة بالجزر الكبيرة وسط بحر عميق من الحصى والاحجار الصغيرة . لهذا اطلق على هذه التشكيلات بحق جزر الجبال . ومن خلال التجول طولا وعرضا على الرمال حول القطع الصخرية الكبيرة السوداء وجدنا علامات بارزة لسير العربات تتلاقى وتختفي في اللانهاية المحترقة في الشمس .

اي طريق صحيح ؟ ليس هناك سيارة يمكن رؤيتها بالرغم من الحركة المستمرة لسيارات الصهاريج التي تنقل الوقود من الساحل الى الوادي . وحسم أحمد أمره بقوله « ان شاء الله » .

واتخذ الأثر المتجه يمينا . انطلقت السيارة اللاندروفر كالوحش الضاري ودوت من المذياع الموسيقى المفضلة من قبل اصدقائي . كما اثارت قطع الحجارة المتطايرة على الواح ارضية السيارة ضجة تصم الآذان وتطايرت من قاع الأرض ذرات الغبار الناعم حول جوانب السيارة . وكلما وقفت سيارتنا لجأة امام الحواجز الصخرية سبقتنا سحابة من الغبار لتصبح في ظلام دامس كما تسرب الرمل الناعم عبر كل الفتحات والمنافذ الى داخل السيارة فسبب لنا حرقة في العيون والأنواه وانساب الى داخل آلة التصوير . كانت

القاعد وكل الاجزاء المعدنية حارة لدرجة الاعتقاد بان المرء يلمس صفيحة فرن ساخنة .

يبدأ الوادى بشقوق صخرية وأحجار مجروفة من الشعاب الصغيرة الى الأودية العميقة . وقد اجبرتنا هذه الحواجز الصخرية العمودية الى السفر طويلا لعدة كيلومترات في طريق ملتوي كالثعبان . واستمر الطريق بتشكيلاته الصخرية على نفس المنوال لبضع ساعات حتى ظهرت جدران الوادى العالية حيث استطعنا رؤيتها من بعد في الساعات الأخيرة . كانت تلك الجبال الضخمة الشبيهة بالجزر مؤشرا واضحا بان هدفنا اصبح قريبا .

وعند الأصيل توقفنا عند حوافي الوادى الشاهقة والغبار يتطاير من حولنا . لقد قطعنا مسافة مئتين وثمانية وثمانين كيلومتر بالضبط واستغرقت رحلتنا ست ساعات ونصف . وها نحن وصلنا أخيرا الى وادى حضرموت .

سيئون ، تريم وشبام: النجوم الثلاث (شتاين)

« سيئون والماء ولا سمن البقر في شبام » هذا مثل حضرمي .

من على فندق السلام المريح الواقع على اطراف مدينة سيئون والمبنى في هذه الواحة يمكن التمتع بنظرة شاملة وشائقة وسهيبة لوادى حضرموت الجاف والممتد مع مجموعة اشجار النخيل الخضراء الداكنة بين الأحجار الجيرية الشاهقة . ويوجد في هذا الوادى اكثر من مليوني نخلة تشكل ثمارها منذ أقدم العصور المواد الغذائية الضرورية للحضارم . ولا يقتصر استخدام هذه الثمار للتموين الداخلي فحسب ، بل ايضا للتبادل بالانتاج الحيوانى مع البدو المتجولين في المناطق الصحراوية المتاخمة . وفي اوقات الشدة والعوز حاول بدو الجمال المحاربون الاستيلاء على ثمار الفلاحين بالقوة ، لهذا اقيمت حول المواقع السكنية للمواطنين القيمين في الوادى القلاع المنتشرة على الحوافي .

أخيرا وقفنا في ميدان السوق أمام القصر الخلاب الذى يهيمن على صورة مدينة سيئون . انه شهادة بارزة على فن البناء العربى المتقن ، الذى سيتعرف عليه القارىء في الفصل التالي . فهنا اقام سلاطين الأسرة الكثيرية ، الذين سيطروا على البلاد مئات السنين واستغلوا السكان عن طريق الأتاوى العالية . ولكن بانتصار الثوره انتهت هذه السيطرة .

وفي كشك لبيع عصير الفاكهة شربنا عصير المانغو المثلج ثم تجولنا حول المتاجر في سوق مسقوفة تسيطر عليها حتى أوقات المساء حركة تجارية واسعة . لقد وضعت في حسابى شراء بعض الأشياء لمتحفنا في مدينة لايبزيج .

التقاليد المحافظ عليها

في اليوم التالي زرنا مدينة تريم التى تبعد اكثر من خمسة وثلاثين كيلومترا عن مدينة سيئون . قبل ذلك قمنا بزيارة المتحف الاثنوغرافى الصغير في سيئون حيث تعرض فيه اشياء هامة وشيقة من ماضى حضرموت . ويشرف على ادارة هذا المتحف على سالم مشهور وهو علامة حضرمى كبير في السن . وقد شرح لنا مشهور معروضات

هذه المجموعة الموجودة في الغرف الأرضية في بيت الضيافة التابع للسلطان السابق . وبعد ان تعرفت عليه كزميل مختص سمح لي بتصوير المعروضات المكونة من اسلحة متنوعة حملتها القبائل في الماضي واستخدمتها في نزاعاتها وصراعاتها كالرماح والسيوف والخناجر الملتوية الرائعة التي يطلق عليها العرب اسم « جنبيه » حيث تودع في أغماد جلدية مجلاة بالفضة . وتوجد منها ثلاثة انواع مختلفة .

وهناك أشياء عديدة من حياة النساء تتبع لهذه المجموعة : شباشب جلدية وأثواب عرس مطرزة ومصاغات فضية مشغولة بدقة مثل الخلخال والأساور والخواتم والعقود وحلقات الأذن وخواتم الأنف ذات اللآلئ والموضوعة على تمثال نصفي . ويشعر المرء بروح التقاليد في مدينة تريم ذات البيوت والمباني الدينية الجميلة المزخرفة وخاصة المباني ذات القباب والمساجد والمآذن ومنها مئذنة مسجد المحضار التي ترتفع اكثر من خمسين مترا عاليا . فالذي يستطيع ان يبذل جهدا في تسلق هذه المئذنة ذات السلم الحلزوني ذي المائة والخمسين درجة في ظل درجة الحرارة المثلة للحركة ، لسوف يشاهد منظرا شاملا رائعا لأبنية وحدائق تريم التي تتمتع بشهرة كبيرة كمقر لعلماء الاسلام منذ مئات السنين . فعندنا يجد علماء اللغة العربية والمؤرخون وقتا كافيا يأتون على حسابهم الخاص الى هذا المكان للتعمق في كنوز مكتبة الاوقاف التي تحتل الطابق الاعلى من الجامع (المسجد) الكبير في تريم ، والتي تحتوي على ١٤٠٠ مجلد ، من بينها مخطوطات يدوية حضرمية مكتوبة بخط فني رائع حيث تحظى بعناية بالغة .

ناطحات سحاب مبنية من الطين

كل رحالة زار شبام وكتب عنها فيما بعد فكر في أمر أقدم مستوطنة مختملة في وادي حضرموت : « من أجمل مدن العالم » و « جوهرة حقيقية » . لهذا تقارن مدينة شبام بمانهاتن أو شيكاغو . حتى ان هلفريتز اصدر كتابه الأول حول الجنوب العربي تحت اسم « شيكاغو الصحراء » . ان منظر شبام الفاتن يحيي آلاف الناس من خلال الملصقات والبطاقات البريدية الملونة . انها في الواقع مثيرة للاعجاب .

مدينة على الرمل من الطين (اللّبن)

« تحمل عمامة وحزاما من الرخام الأبيض عاليا في السماء »

الهمداني في « الاكليل » عن البيوت العالية في جنوب شبه الجزيرة العربية

شبام : بيوت عالية في جنوب شبه الجزيرة العربية

ما الذى يشعر به الغريب عندما يرى من البعد صورة بيوت شبام العالية المتألقة في الحر اللافح في الوادى ؟ خاصة فيما اذا كان قد انتظر لرؤية هذا المنظر عدة سنوات وتطلع اليه بعين المتخصص في هذا المجال ؟ لقد غمرتني الدهشة والهيبة ! لماذا ينبغي الصمت والهيبة من ذلك ؟ بماذا أبدأ وصفي لهذه المدينة الفريدة من نوعها ؟

من الأفضل الأشارة الى اوصاف الزوار السابقين لمدينة شبام والاخطاء التي نشأت في غمار حماسهم وعدم معرفتهم .

يقدر عمر هذه المباني بين مئة وستمائة سنة . ويتراوح عدد أدوارها بين ستة إلى خمسة عشر طابقا . لقد احصى بعض الرحالة عدد النوافذ المتتالية في الواجهات العليا فاستنتجوا من ذلك عدد الأدوار . لقد كان ذلك استنتاجا خاطئا اذ فاتهم ان هناك نافذتين متتاليتين في دور السكن الواحد في منازل الجنوب العربي . فهناك نافذة سميكة تبدأ من ارضية الغرفة وتقفل بمغلق خشبي يطلق عليها باب النافذة ، اما النافذة الأخرى فهي صغيرة تقع بالقرب من السقف وتستخدم للتهوئة والاضاءة عندما يغلق باب النافذة الكبيرة في شدة حر الجو وقت الظهيرة . فبيوت شبام المبنية من اللبن ترتفع بشكل مثير للاعجاب مسافة ثلاثين الى اربعين مترا عاليا . ان مدى عظمة هذه البيوت يمكن استنتاجه من الادوار الأرضية العالية جدا .

وقبل صعودنا الى سطح احد هذه البيوت كان علينا ان نسمع شيئا عن عمر هذه المباني . فمن المحتمل ان عمر مدينة شبام الحالية يتراوح بين مئة الى ثلاثمائة سنة كحد أقصى . فهي تظل قائمة كلما كان السقف والصرف (المجارى) في حالة سليمة . فتسرب مياه الامطار الغزيرة — وان كانت نادرة — من خلال الشقوق في السطح يؤدى إلى حدوث اضرار في الدور

العلوي الملاصق للسقف . كما ان اكتساح مياه الأمطار لقواعد البيوت والجدران يؤدي غالبا الى انهيار المنازل . وإذا قدر المرء عمر مدينة شبام بحوالي ١٧٠٠ سنة فهذا يعني ان هذه المدينة قد بنيت من جديد ست الى تسع مرات حتى الآن وان انقاض البيوت المهدمة من الماضي قد استخدمت لبناء البيوت الجديدة . فمن بين المواد التي استخدمت بعض اجزاء الأساس والأخشاب التي لم تهاجمها الحشرات بعد ان تم تنقيتها بعناية كما خلط طين البيت القديم بالقش والماء وتم تحويله الى طوب اخضر . مما ذكر يتضح ان خرائب مدن قبل الاسلام في وادي حضرموت لم توجد الا باعداد قليلة وفي صورة الحائط الاساسي أو كتل من الأساس . فالكتل العالية من الطين اصبحت غبارا تذروه الرياح . فهذه البيوت كانت — كما ذكر العلماء — موجودة في الممالك القديمة حيث اشارت ابحاث ف . مولر الأثرية الى وجود بيوت ذات طوابق عديدة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام .

ان الأسباب التي ادت الى اقامة الحصون الحجرية (على الجبال وعلى سبيل المثال في منطقة يافع) هي نفسها التي ادت الى تشييد المنازل العالية من اللبن في الأودية . فقد لزم استخدام كل متر مربع للزراعة كما ان طريقة البناء للأغراض الدفاعية استدعت بناء البيوت كالأبراج والحصون . فاذا تتبعنا النزاعات الحربية بين الممالك القديمة في حضرموت بما في ذلك الصراعات القبلية وكذا التنافس على السلطة بين الأمراء والسلاطين حتى وقت قريب فسوف نستنتج من ذلك انه لزم بناء هذه المنازل في شكل حصون .

دخلنا حصن العائلة بعد ان سمح لنا اصدقاؤنا برؤيته من الداخل . يتكون الدور الارضي من غرفة واحدة ارتفاعها حوالي خمسة الى سبعة امتار كان جزء منها مملوءا بمواد العلف ومختلف المخزونات في حين كان الجزء الآخر منها فارغا . وفي حارات الأسواق بنيت في الدور الأرضي للمنازل متاجر صغيرة ، في حين تستخدم هذه الغرف خارج المدينة كزرائب للبهائم . اما الماعز فقد وضعت غالبا في الزرائب الصغيرة التي تلي الطابق الأرضي بعدة درجات كما هو الحال بالنسبة لغرفة المخزونات . ومن خلال الفتحات العليا للدفاع يمكن مكافحة العدو من الأروقة الصغيرة ، حتى في حالة تمكنه من دخول البيت . لقد كان الضوء خافتا ، لهذا استخدمنا مصباحا يدويا لانارة طريقنا عبر السلالم الى الدور الأعلى . ففي الطابق الأول توجد غرفة كبيرة هي غرفة الضيوف « المبرز » حيث فرشت فيها الحصر التي وضعت عليها المخدات كما اسندت فيها الدواليب والصناديق الصغيرة التي تستخدم لحفظ الملابس والأدوات الشخصية على الحائط ، اما في الدورين التاليين فقد رأينا فقط سلالم المنزل الواسعة ذات التهوئة . فهذان الطابقان مخصصان للنساء والأطفال لهذا يعتبران بالنسبة للزائر الغريب كحرم — بمعنى غرف يمنع على الزوار دخولها . والطابق الذي يلي ذلك للاطفال ، اما الطابقان العلويان فهما للرجال في المساء . واخيرا يأتي السطح الذي هو نظام متكامل من الأسطح يسمح بقضاء وقت الراحة والنوم ليلا ، اذ يمكن تحمل درجة الحرارة وهبوب الرياح ليلا .

وتسمسح الاسطح بنظرة مدهشة الى الهوة العميقة للحارات التي تظل — بسبب شدة الحرارة في وقت الظهيرة — خالية من الناس حيث لا يسير فيها سوى بعض الأفراد . ويمتد النظر من هنا بعيدا الى بحر من الأسطح والى وادي حضرموت وحدائق النخيل وكذلك الى جدران الحجر الخيري العالية والقائمة خلف المدينة .

دفعنا الحر الى العودة نحو غرفة الضيوف التي كانت نوافذها مغلقة . كما ان درجة الحرارة كانت محتملة هناك . وفي هذه الأثناء جلب لنا ابن مضيفنا الشاي المعطر بالهيل وكذلك الخبز الطازج على حصيرة للأكل وضعت في وسط الغرفة . وبعد ان جلسنا واستندنا براحة على المخدات لاحظنا سبورة معلقة على الحائط . « انني مدرس » اجاب مضيفنا على نظراتنا التساؤلية . « أربع مرات في الاسبوع بمعدل ساعتين لكل درس أقوم بتعليم الفتيان القراءة والكتابة » مجانا ! ثم ابتسم وقال « هذا طبيعي . لماذا يدفع لي أبي وأمي اللذان اعدهما ايضا من ضمن تلاميذي مقابل ذلك ؟ »

وبعد فترة الاستراحة واصلنا زيارتنا للبيت حيث قدمت لنا تلك الزيارة حقائق جديدة ومثيرة حول كيفية بناء البيت ووظائفه المختلفة ففي جوانب سلالم البيت توجد المراحيض « الحمامات » وغرف الغسل ، وهي عبارة عن غرف صغيرة نظيفة للغاية غطيت جدرانها بالجير الصلب وفوق ارضيتها فتحات ذات أغطية ، ومن خلال هذه الفتحات تخرج الفضلات الى حفر ارضية يتم افراغها من الحارة من وقت لآخر . اما الماء الوسخ وفضلات المطبخ فيتم التخلص منها عبر الفتحات أو من خلال أنابيب

البالوعات الخشبية ، ومن واجهات البيوت ينساب الماء النازل عبر الأنابيب بعيدا عن قاعدة البيوت لعدة كيلومترات . وتستعمل لهذه الغاية قطعة حجر كبيرة توضع عند قاعدة البيت لتتحمل الصدمات .

والجديد الذى يعتبره كل ساكن في المدينة دليلا على الأهتمام الاجتماعي المباشر من قبل الدولة هو مد انابيب مياه الشرب إلى الحارات حيث تستخرج تلك المياه من آبار عميقة عن طريق نظام الضغط الى شبكة متكاملة لتموين جميع المنازل . ولا تزال هذه الأنابيب متروكة في العراء داخل الحارات ، الا ان اعادة التعمير تحت اشراف اليونسكو سيؤمن عدم تسرب المياه ، كما ستوضع هذه الأنابيب بالتأكيد تحت القشرة العليا للأرض .

وتتكون بيوت شبام من طوب يتألف من اللبن (الطين) المجفف في الهواء والذى سنتعرض لطريقة انتاجه فيما بعد . ويتراوح سمك جدران الدور الارضي بين متر ونصف ومترين ويتناقص هذا السمك نحو الأعلى حتى الحافة العليا للبيت . فذلك من خصائص منازل مدينة شبام . ومنظر البيوت بأعمدتها العديدة القوية شبيه بالحصون ، كما ان معظم جدران البيوت مطلية بالطين ، الا ان المنطقة العليا منها غطيت بطبقة كبيرة من الجير الأبيض . هذا ما كتبه فرايا شتارك ويعنى بذلك ان الطوابق الجيرية العليا او عددا منها تظهر حسب وصفه كتاج أبيض من القصدير على المدينة ذات اللون البني . وكما ذكرنا من قبل فان فترة بقاء البيت تحددها نوعية منطقة السطح . لذلك فان الجزء الاكبر من الأسطح مغطى بجبس رخامي يمنحها القوة والصلابة . وعلى مر السنين تتصلب هذه المادة في الهواء والشمس بحيث تتحمل الأمطار الغزيرة ولكن لفترة قصيرة . ان زخارف السقف واركان تعليق الملابس داخل الغرف وكذلك الأبواب المسورة وما شابه ذلك تحظى ايضا بنفس العناية . وقد أفشى لنا سر هذا « الجبس الحضرمي الطبيعي » المزوج بزلال البيض الذى يعطى لمعانا ونعومة .

اما الأخشاب فتستخدم فقط في بناء بعض اجزاء البيت ، وتشكل جذوع النخيل شقالة يعتمد عليها جزئيا في بناء البيوت العالية . كما انه لا يمكن الاستغناء عن الأخشاب لتدعيم اسفل السلالم وكأعمدة للسقف أو دعامة توضع في وسط الغرف الكبيرة كغرف الضيافة . وتتكون الأعمدة عادة من جذوع العلوب المشذبة بحيث توضع عليها تحت السقف أخشاب عريضة كبيرة . وبسبب ارتفاع أسعار الأخشاب المستوردة من افريقيا وجنوب شرق آسيا فقد وجدت بكميات قليلة جدا كما ان جذوع اشجار النخيل كانت غير كافية للبناء لهذا استخدمت اخشاب محلية أخرى مثل أخشاب أشجار السنط والنبق والصيدر وأشجار شوكية أخرى بحيث يستفاد من الجذوع والفروع والأوراق والأزهار والثمار كما هو الحال بالنسبة لأشجار النخيل . أما الخشب الأحمر البني فيستعمل لسقف المنازل . ان كل ما ينبت في الوادى يتم استخدامه . ففي الوقت الذى قيمت فيه ثمرة شجرة النبق كمادة غذائية ، فانه وجب على الانسان تفادى تفاح العشر السام ذى البريق الأصفر .

وبعد ان ودعنا اصدقاءنا في الحارة حانت فترة الراحة لتعود بعدها الحياة التجارية الى مجراها الطبيعي من جديد . لم نذق للراحة طعما فقد تتبعنا في الحارات الظليلة ثلة من الأطفال اللاغطين بأسلوب ودى . وبذلك يبدأ الجزء الثاني من دراسة البناء في شبام .

أبواب حضرموت

تتكون هذه الأبواب ، التى هى عبارة عن أعمال فنية ذات تصميم واحد ، من الواح خشبية قوية وسميكة مرتبطة أفقيا من الداخل والخارج بعدد من الأخشاب ويتم ذلك بواسطة مسامير كبيرة قوية صنعت على ايدى الحدادين ، بحيث تبقى رؤوسها المنبعجة ظاهرة على الخشب . هذه هي الزخرفة الحقيقية للأبواب التى تحمل منحوتات جميلة بارزة تمثل الطبيعة العربية ممزوجة احيانا بمسحة اندونيسية . ويظهر نفس الأسلوب أيضا في المخرمات المسورة للأبواب . وفي بعض الاحيان يوجد اسم المالك وتاريخ الصنع منقوشين بمهارة على الأبواب ، والى جانب ذلك يغلق مصراعا الباب بقفل خشبي . وفي الأبواب والمداخل الكبيرة ذات المصراعين (في قصور سيئون وتريم) نجد نظاما معقدا ومتشابكا من القفول الخشبية المتداخلة في بعضها البعض . وتعلق على الباب حلقة نحاسية تستعمل لطرقه حيث أصبح رأسها المعدنى لامعا من كثرة الاستعمال عبر السنين . وفي علو متوسط بجانب الباب توجد فتحة صغيرة تسمح فقط بدخول اليد فيها لغلق الباب بالقفل الخشبي (قليد) . ويمكن ادخال اسنان القليد في الثقوب المناظرة بحيث ترفعها الى أعلى عن طريق الضغط من أسفل . هذا هو بالدقة سر

القفل الأمني الحديث المصنوع من الفولاذ والذى يبدو وكأنه فرشة أسنان كبيرة . وقد رأيت في سيئون القفل الكبير الذى بلغ طوله خمسة وثلاثين سنتيمترا .

لقد اصبح استعمال القفول الخشبية قليلا نسبيا . اذ حلت محلها للأسف القفول الحديثة . هل هذه خسارة يؤسف لها حقا أم تقدم حقيقى ؟ فيما يتعلق بمدينة شبام فان النظر في اعادة تعميرها والحفاظ عليها هو فقط حالة مؤقتة . ولكن ما الذى سيحدث لمدينتى سيئون وتريم ؟

ان مما يدعو للتذكير هو انه يوجد الآن عدد قليل من الحرفيين القدامى الذين يعرفون كيفية صنع هذه الأبواب والقفول . وللحفاظ على الحرف اليمنية التقليدية يجب تأهيل حرفيين شباب للقيام بهذا العمل .

وهناك طريقة فريدة لفتح الأبواب للزوار . فبعد سماع الطرق على الباب ينظر الى الطارق من خلال نافذة في أعلى البيت ثم يتم شد الحبل المربوط بالقفل لفتح الباب . فهذه الطريقة لا تحتاج للنزول والطلوع لهذا الغرض .

التفكير في الأمن حدد وضع المدينة

كانت بعض المصابيح تستعمل في الحوانيت الصغيرة اللحارات التجارية عندما سرنا من المسجد الرئيسى (الجامع) الى الميدان أمام قصر الحاكم السابق . هناك موقف سيارات اللاندروفر ، اما سيارات النقل الكبيرة وعربات الصهاريج فتنتهى رحلتها امام باب المدينة . فشوارع مدينة شبام ضيقة لدرجة أنها تسمح فقط وبصعوبة بمرور جملين محملين في اتجاهين مختلفين . والمكان الذى بنيت عليه المنازل داخل الأسوار الحامية لها كان ضيقا . فمدينة شبام تنفرد بهذا الوضع في البناء . ويمكن معرفة وضع المدينة بشكل افضل من خلال النظر اليها من أعلى . لذلك لزم علي في الصباح الباكر الصعود الى المنحدر الجبلي الواقع مباشرة تحت جدران الوادى الجنوبية القائمة لالقاء نظرة شاملة على المدينة .

الآن تقف المدينة أمامي . فبيوتها العالية البالغ عددها حوالى خمسمائة منزل تقع وسط الوادى على بقعة رملية يحيط بها سور المدينة . ويفسر هذا وضع مدينة شبام في وسط الوادى . فقد كانت مقياسا لعدم القدرة على التوسع ولامكانية تشييد بيوت عالية في المدينة . والسكن خارج الأسوار الحامية يحرم الساكنين من الموقع الآمن ويعرضهم للخوف من مياه السيول . فالسيول المنحدرة من أعالي الجبال بعد نزول الأمطار الغزيرة ولو لفترة قصيرة لا تؤدى الى خسائر جسيمة في بساتين النخيل فحسب بل وتجرف امامها الناس والحيوانات والبيوت الواقعة في طريقها . وقد حدث ذلك في ربيع عام ١٩٨٢ م حيث أحدثت السيول خسائر جسيمة في كافة محافظات جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . لهذا تقام المساكن بعيدا عن مجرى السيول ، وفي الوديان الضيقة تقام تحت جدران الوادى مباشرة . ويتم دائما اختيار انسب المناطق الصخرية لاقامة المساكن على جانبى الوادى . ولا تسمح هذه القلاع لأحد بالاستيلاء عليها ، اذ من السهل الدفاع عنها وخاصة تلك القلاع التى تسيطر على الطريق ، فضلا عن انه بالامكان اغلاق بوابة المدينة . ومثل هذه المجموعات السكنية احاطت بوادى عمد ودوعن ووادى حجر ، بينما اقيمت هذه المساكن في وادى حضرموت على المناطق المرتفعة عن مجرى السيول كما هو الحال في سيئون وتريم وقسم وشبام .

ويوجد في الوادى الواقع امامى المجرى الرملي للسيل البالغ عرضه مئة وخمسين الى مئتي متر تحيط به مجموعات من أشجار النخيل . وعلى بعد حوالى خمسمائة متر من المجرى ترتفع الواجهة الجنوبية للمدينة القديمة . كما يظهر في القسم الشرقي اليمنى جدار البيوت المسدود الذى يرتفع تدريجيا . ولا يوجد بسور المدينة سوى باب واحد يليه السوق والقصر والمسجد . وفي الجانب الآخر من مجرى السيل تقع شبام الجديدة ذات البيوت الواسعة والاكثر اضاءة مقارنة مع المجموعة كلها . فهنا يستخدم أيضا اسلوب البناء التقليدى الصخرى وتحظى مياه السيول بالتقدير من قبل الساكنين . فالمدينة الجديدة تقع تحت جدران الحائط الصخرى دونما سور اذ لا حاجة له .

اللبن (الطين) : مادة بناء عامة ورخيصة

في طريقنا الى سيئون مررنا بالمدينة الصغيرة الهامة « الغرفه » الواقعة على بعد عدة كيلومترات من منطقة الحدود التى كانت قائمة هناك قبل بضع عشرات من السنين . فعلى بعد كيلومترين شرق شبام انتهت انذاك حدود سلطنة القعيطى ليبدأ نطاق سيطرة سلطنة الكثيرى .

هذا هو الماضي لا يزال يذكرنا به عدد كبير من القلاع وابراج المراقبة .

وبجوار بقايا سور المدينة القديم تبنى بيوت جديدة حيث يجفف مئات من الطوب الأخضر (المدر المكون من الطين والقش) تحت أشعة الشمس . اقتربنا الى حافة حفرة مسطحة يعمل داخلها عدد من العمال لابسى الفوط كانوا يقومون برش الماء على الطين الجاف الذى ينهار على حوافي الحفرة ثم يمزج هذا الطين المبلل بالتبن ويداس بقوة الأرجل فتحظى عجينة الطوب بالنعومة المطلوبة . وتنقل العجينة على طاولات خشبية الى عمال آخرين وبحركة سريعة تملأ القوالب الخشبية حيث يتم مسحها باليد لتزال عنها المواد التى لا داعي لها ، ويرفع القالب الخشبى تنتهى العملية . وعلى مقربة من ذلك يتم في مكان آخر ترتيب المدر في شكل صفوف وحقول خلف بعضها البعض حتى يمتلئ المكان . ان حجم هذا الطوب الذى يعتبر مادة مثالية للبناء هو ٣٠×٥٠×١٠ سنتيمتر ، كما انه في نفس الوقت مادة رخيصة بنيت منها بيوت عالية منذ اكثر من الفي عام . وترجع استمرارية الهندسة المعمارية لجنوب شبه الجزيرة الى ان المواد المحلية للبناء لم تتبدل كما لم يفقد انتاج الطوب الطيني أهميته حتى يومنا هذا . اذ لا تبنى من المدر بيوت السكن فحسب بل ايضا المباني الرسمية كالمستودعات والمدارس والمراكز الادارية والمطاعم بل والفنادق .

السقاية والبئر والمسجد

وعلى مسافة ليست بعيدة من مكان البناء تلمع مئذنة وقبة مسجد صغير وتعلوان أشجار النخيل . وتلاقي بجوار السور سقاية غنية بالزخرفة نصفها مهدم . لقد أقام التجار والأغنياء هذه الاماكن للشرب على طريق القوافل . ويدفع المشرفون عليها أجورا للرجال الذين يملأونها يوميا بالماء . أما بالنسبة لنوعية الماء فهى ليست كما ينبغى ، ولكن ماذا يعنى ذلك بالنسبة للعطشان ؟ ففى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لا يزال يعتبر تقديم ماء الشرب لطالبه قانونا غير مكتوب . ويستطيع المرء تصور قيمة هذه السقاية في الأزمنة الماضية التى انعدمت فيها وسائل النقل السريعة والمياه الجارية المجلوبة الى البيوت . لقد ادركنا بأنفسنا قيمة هذه السقاية خلال رحلاتنا الى حضرموت . اذ ان جزءا منها لا يزال يستعمل حتى الآن .

والسقاية الموجودة في مدينة الغرفه لم تعد تستعمل . فبالقرب منها تقوم مضخات للمياه ذات موتور يروى مجموعة من القنوات يرتع في مياهها الأطفال وكذلك لتموين البيوت المجاورة بمياه الشرب . وهنا لا بد من قول بعض الكلمات عن السقاية لأنها تتبع لمجموعة واسعة الانتشار في وادى حضرموت . فالبئر والسقاية والمسجد والنخيل تكون مجموعة قاسمها المشترك هو الماء . فمن الآبار التى بلغ عمقها حوالى عشرة امتار تسحب المياه بواسطة جهد الأنسان أو الحيوان ثم توزع حسب الحاجة . فاما ان تملأ السقاية الواقعة قرب البئر أو توزع هذه المياه الى بركة المسجد حيث الحاجة ضرورية لها للوضوء . وينساب الجزء الثالث من المياه عبر المجارى المكونة من الطين مباشرة الى جذوع اشجار النخيل العالية التى تظلل المسجد وتنافس منارته الجميلة في الطول .

وقد بنيت المئذنة القريبة من السقاية على طراز البناء الحضرمي . فهى عبارة عن زوايا في شكل رمح حاد ذى قاعدة تكعيبية تستقيم بشكل دائرى ويقل سمكها كلما ارتفعت نحو الاعلى . ووفقا لعلو المئذنة يلتف حولهما نقش أو عدة نقوش من الطوب الطيني . ويمثل هذا النقش نهاية الاعمدة الحاملة . أما قبة المئذنة فهى ذات شكل كروى أو مخروطي محاطة بنقوش دينية كالرمح الحاد . وغالبا ما نجد الاشكال الحضرمية القديمة « المنارة القديمة » . اما الاشكال الأخرى الموجودة في وادى حضرموت فتظهر كطراز اجنبى وغير طبيعي . فالمآذن التى انشئت في القرنين الماضي والحاضر اخذت شكل مآذن جنوب شرق آسيا . ان القاسم المشترك بينهما هو العلو الى جانب ان المساجد والمآذن الحضرمية القديمة تظهر وكانها لعبة اطفال .

سيئون : مدينة وسط بساتين النخيل

يوجد في مدينة سيئون مساجد كثيرة من هذا النوع يطل عليها جميعا قصر السلطان المتباهي . لقد بقي هذا القصر قائما في حين وجل على الحكام آل كثيرى مغادرة البلاد مخلفين وراءهم تركة سيئة تتمثل في الأوضاع الاقتصادية المتخلفة والسكان المعدمين الذين امتصوا منهم

كل شيء . وتوجد حاليا في هذا القصر قاعات عامة ومكتبة ومعرض . وقد قسم القصر ذو النوافذ العالية الى طوابق مطلية من الخارج باللون الأبيض . وتوجد على الأرضية الحمراء البنية للجدران الطينية فتحات مرتفعة للتهوئة . ان هذه الفتحات والتشكيلات تزين هذا القصر الذي يعتبر من أقدم قصور حضرموت وتشير بعض هذه القصور الى بقايا هذا الفن الذي حملت تشكيلاته طبيعة رمزية . ومن المحتمل انه في زمن الرخاء قد تغيرت طريقة التشكيل الأساسية في بيوت الاغنياء حيث استبدل اللون البني باللون الأبيض . ففي حضرموت كان الجير دائما مرتفع الثمن كما سنعرف فيما بعد .

ان من ينظر للرواق وقباب أبراج القصر يعجب بما فيها من اناقة وجمال . فالذي يبذل جهدا في مقارنة مادة الصور القديمة مع الموجودة حاليا سيلاحظ وحده ان هذه الأشكال نشأت في عصرنا . وتظهر هنا تأثيرات هندية واندونيسية لأن كثيرا من الحضارم قاطني جاوه انتموا الى سيئون . وبالرغم من وجود الأبنية الاجنبية الشكل التي ازيل بعضها قبل بضع سنين فان القصر يعبر عن الفن المعماري الحضرمي التقليدي . فهو نموذج رائع لحصن مسلح . ويمكن احصاء المئات من هذه الأبنية لتداعية المتهدمة في حضرموت والواقعة على طريق التجارة بين الساحل والداخل . كما ان الحصون الواقعة بين شبام وسيئون وتريم والتي لا حاجة لها اليوم كغيرها ، تقف اليوم كحلقات اخيرة لسلسلة متهدمة . فقد لزم استخدام مثل هذه الحصون على طريق البخور القديم لحماية القوافل ثم قامت المساكن فيما بعد حول الحصون . وجميع الحصون الكبيرة منها والصغيرة تمتلك قاعدة مربعة ذات ابراج دائرية قوية ليسهل الدفاع عن المبنى الرئيسي من كل الجهات . ويرى ب . دوا انه فيما بعد استغنى الانسان عن زوايا الحصن ، وخلال فترة سلام طويلة تطور نموذج واضح لحصن مربع أو محدد الأركان . وهكذا لا تزال تظهر القصور القديمة حتى اليوم حيث تستخدم كسكن مدني لعائلات عديدة .

لقد بقيت سيئون مدينة نظيفة لطيفة مثلما وصفت من قبل الأوائل . فبساتين النخيل أعطتها شهرة واسعة فسميت « مدينة البساتين » ، حيث كان السلاطين والسادة يقضون القسم الأكبر من العام في قصور صيفية بيضاء وسط بساتين النخيل . وتقع دار الضيافة الجديدة التابعة للحكومة بين أشجار النخيل الخضراء ، هناك وضعت لنا فرش نوم على القطف . وبعد وصولنا الى مقر نومنا خلع صديقاي حسن وأحمد سروالهما المليئين بذرات الغبار وقالا : « خلاص » ثم لبسا الفوط المريحة . أما انا فقد ذهبت للتعرف على المدينة .

ومن خلال جولة مسائية على الأقدام أمام القصر في المدينة القديمة اتضح لي تركيبها الطبيعي وسحر نفائسها وفنها المعماري . فهناك شاهدت بين البيوت الجسور الضيقة على الممرات الصغيرة للحارات والنقوش الخارجية في اماكن النساء والنوافذ الكثيرة المزخرفة حول الخرمات الخشبية البنية السوداء وكذلك الأبواب الكبيرة المثبتة على الأعمدة ، بحيث تسمح عند تحريك مصاريعها الثقيلة بالقاء نظرة شاملة في فناءات البيوت . والى جانب ذلك توجد البيوت ذات الأسوار الطينية العالية المبنية من الطين كبيوت النمل ، طين على هضاب طينية مثل كل المباني في الوادي .

الجير : مادة بناء ضرورية ولكن غالية

في قرية السويري الواقعة بين سيئون وتريم صادفنا حرفة تقليدية أخرى . فبجانب بقايا سور المدينة رأينا دخانا كثيفا اتضح لنا فيما بعد انه نابع من فرن لحرق الجير . ويحرق الجير هنا بطريقة بينت لنا قيمته التجارية العالية حتى في الوقت الحاضر . فالأفران كبيرة في الواقع ، اذ يصل ارتفاعها ستة امتار ، أما قطر الدائرة فيبلغ أربعة امتار ونصف . وتوجد امام الأفران كميات كبيرة من مواد الوقود يحيط بها اكوام من الحجارة الجيرية المكسرة ترعى حولها الجمال . هناك رأينا حضريين احدهما وأصله كما هو واضح من قسمات وجهه من العبيد السابقين كان يقذف بمواد الوقود دونما كلل في فوهة الفرن الحمراء من شدة الإشتعال . وتتلاشى في اللهب المتأجج كميات كبيرة من حزم سعف النخيل والأغصان المجففة . وكاحتياطي ذو قيمة عالية توجد بجانب الفرن اكوام من جذوع النخيل ، كما انه ليس من السهل تصور حجم الكميات الهائلة التي تلتهمها هذه النار الجهنمية . والحقيقة ان الجلب الشاق لمواد الوقود هذه في بلد فقيرة بالأخشاب يحدد القيمة العالية للانتاج النهائي للجير .

ولا شك انه بالامكان اليوم استيراد الجير من الخارج ونقله بالطريق البرى الجديد من المكلا الى وادى حضرموت ، الا انه يجب توفير العملة الصعبة ووسائط النقل لاستيراد

السلع الضرورية . فضلا عن ان طريقة انتاج الحبر عمليا تسمح باستعمال المواد المحلية التي يتقن الحضارم استخدامها منذ عدة اجيال . ان القرار الصائب في المستقبل القريب يكمن في توسيع هذه الحرف التقليدية وادخال الطرق الصناعية الحديثة .

تريم ذات القصور الضخمة للسادة الأثرياء :

كانت تريم القديمة تقع على طريق البخور . وبعد انتشار الدعوة الاسلامية نالت هذه المدينة شهرة دينية واسعة كمقر لاعتناق الاسلام وكمدينة موصوفة بالحكمة حتى وقتنا الحاضر . فعدد المساجد والكتاتيب والمكتبات التي تم بناؤها في فترة العصر الاسلامي الذهبي فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر قد اعطت للمدينة شهرة واسعة حتى اليوم .

ان الملفت للأنظار في صورة مدينة تريم هو العدد الكبير من القصور الملونة غير العادية ، التي كانت ملكا للسادة الأثرياء وخاصة لأفراد اسرة الكاف الذين تحصلوا على ثروة طائلة في اندونيسيا . ويمتزج اسلوب البناء اليمني التقليدي بالأساليب المنقولة من جنوب شرق آسيا في القصور الرائعة التي بنيت لهؤلاء السادة في وطنهم الأم حضرموت . وبهذه الطريقة انتجت المهارة الحرفية المحلية والأجنبية فنا معماريا فريدا يظهر للنظرة الأولى من خلال الألوان واشكال الزخرفة . فاذا نزعنا عن هيكل البناء عناصر التشكيل هذه ، فلن يبقى شيء سوى القصر الحضرمي الأصلي الضخم بطرازه القديم . ومما يدعو للحيرة في ذلك هو الاستخدام العام الشامل للطين في كل عناصر البناء مما جعل من قصور تريم شيئا مذهلا . فقد أجاد عمال البناء مهارة فن البناء بالطين وتكييفه حسب الطلب بحيث وجد معلم البناء كل ما يريده لهذا الغرض .

وأجمل القصور هو القصر الذي بني للسيد عمر بن شيخ الكاف بالقرب من مسجد المحضار . فعندما زرنا تريم نزلنا مرتين ضيوفا على السيد عبد القادر الكاف حفيد السيد عمر الذكور . والعديد من افراد أسرة الكاف يقوا مواطنين صالحين في البلاد بعد تأسيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وقد عمل مضيفنا عبد القادر الكاف مدرسا لمدة عامين في منطقة قسم ، اما الآن فيتولى ادارة المكتبة في المركز الثقافي بسيئون . ويعمل الاكبر من اخويه الموجودين بالبلاد مدرسا أيضا بينما لا يزال اخوه الاصغر يتعلم في المدرسة الثانوية بتريم . ويعيش حوالى عشرين شخصا في هذا القصر القديم الذي ظل ملكا لهم كما كان في السابق ، حيث أممت فقط المنازل المؤجرة الزائدة التي يقطنها حاليا العديد من العائلات ، اما البيوت ذات الغرف الرحبة الواسعة فقد تحولت الى مدارس .

التجارة والأعمال التجارية في حضرموت (شتاين)

ان جولة في السوق لا تزال تعتبر أفضل طريقة لكل قادم جديد يريد التعرف على منتجات هذا البلد . هناك سيشاهد سلعا كثيرة مستوردة من بلدان بعيدة ، لهذا فقد كانت انطباعاتي الأولية ان ميزان العرض في حضرموت يميل باستمرار لصالح السلع المستوردة ، اذ يمكن ملاحظة ذلك من بعيد . فاذا اقترب المرء من سوق سيئون مثلا فسيجد أمام مدخل السوق العديد من الدراجات النارية اليابانية (هوندا ، سوزوكي ، ياماها) التي يسافر عليها سكان القرى المجاورة الى السوق . أما السيارات المستخدمة في حضرموت فهي عادة السيارات الصالحة للمناطق الوعرة من نوع تيوتا وداتسون ومتسوبيشي . ونادرا ان تجد محلا أو مطعما لا تنبعث منه موسيقى عربية من مسجل ياباني . كما يوجد من بين المعروضات أجهزة الفيديو والكاميرات والساعات والمصابيح اليدوية وجميعها « مصنوع في اليابان » .

اذا ما هي منتجات هذه البلاد ؟

تسود السلع المحلية بشكل خاص في محلات وأسواق بيع البقولات : بلح مجفف او مرزوم اى مكبوس ومعبأ في قفف كبيرة ، وخضروات مختلفة الأنواع طازجة من البساتين وموضوعة بعناية ، وليمون صغير أصفر وعصير البرتقال وسردين مجفف وزعانف سمك القرش (اللخم) التي تنبعث منها رائحة تشير الى ان تلك الزعانف قد جلبت من مكان بعيد . وملح شبوة الحجرى المرغوب فيه مكوم في السوق على شكل اهرامات صغيرة ، ويتم جلبه حاليا كما كان الحال في السابق على ظهور الجمال عبر الصحراء . ويوجد من بين المنتوجات المحلية أيضا بضائع جميلة مصنوعة من سعف النخل كالحبال والمراوح والقفف والسلال ذات الأغطية أو بدونها وحصائر الصلاة والجلوس والطعام وكذلك القبعات الواقية من حرارة الشمس المحرقة .

وتنتج تحت جمجمة النول اليدوى في حي النساجين الفوط القطنية الزرقاء الخضراء المقلمة التي تعتبر حتى اليوم أهم قطع ثياب البدو . فمن خلال الألوان والنماذج المشغولة يمكن معرفة نسب من يلبسها دونما صعوبة .

في محل صائغ الفضة

يوجد حي صائغي الفضة بالقرب من القصر الكبير في سيئون . هنا يقف الحرفيون التقليديون في ورشهم الصغيرة للغاية حيث يشتغلون بنشاط كبير بواسطة عدد كبير من الكماشات والملاقيط والمحافير والمطارق الصغيرة . ويوجد بكل محل ميزان دقيق لوزن الفضة وكذلك اسطوانة غاز البروبان — من المؤكد انها استحداث تكنيكي — الذى يستخدم لتسخين ولحام الفضة .

وتصوغ هذه الأيدى الماهرة العقود والخواتم المطرزة بفصوص من الأحجار الكريمة وكذلك الأساور والخلاخيل المرتبط بها أجراس صغيرة تطرد أصواتها الجن والعفاريت النهائمة التي لا يزال بعض الحضارم يعتقدون بوجودها . وكمواد خام للصياغة يستخدم اساسا ريال ماريا تريزا القديم الذى شكل حتى قرننا الحالي النقد المتداول في شمال وجنوب اليمن وكذلك في السودان والصومال واثيوبيا . وقد طبع على الوجه الأمامي لهذه العملة الجذابة صورة امبراطورة النمسا في حين حمل الوجه الآخر صورة النسر ذى الرأسين وعام ١٧٨٠ م . ففي مجرى الوقت ضرب في فيينا وحدها ما يزيد عن مئتين وخمسين مليون ريال نمساوى « ماريا تريزا » وفيما بعد ضرب نفس الشكل من العملة في روما وباريس ولندن « كنقود استعمارية » ، فوصلت بذلك الكمية المتداولة من هذا النقد ثلاثمائة مليون قطعة . ربما ان الكثير منها قد استخدم كعقود وكمصاغ فضي فقد شاهدت ذلك باستمرار ، اما الذى يريد اليوم الحصول على قطعة قديمة من هذا فيجب عليه البحث عنها طويلا . ويعمل الصاغة اليمنيون عادة حسب طلبات المواطنين كما ان منتوجاتهم الفنية تعتبر وفقا للعادات القديمة جزءا من المهر الذى يقدمه العريس للعروسة . ويبدو اليوم ان زمن ازدهار الصياغة الفضية في طريقه الى الزوال لأن اليمنيين يفضلون شراء المجوهرات الذهبية . وقد اتضح لي ان المجوهرات المعروضة حاليا في سوق الفضة لم تصنع بنفس الدقة والجودة التي تتميز بها المجوهرات المعروضة في متحف سيئون .

من المكلا الى الشحر

« يوجد نوع وحيد من الرحلات الجالبة للكسب ، تلك هي الرحلة الى الانسان »

بول نيزان في كتابه « عدن » ١٩٣١ م .

سفن كما كان عليه الحال قبل آلاف السنين

هنا بالقرب من سوق السمك وعند مسجد الروضه القديم بالمكلا يعمل عدد من الرجال بجهد ومشقة على سفينة قديمة مسحوبة الى الشاطئ المنبسط حيث كان العرق اللامع يتصبب من اجسامهم . فقبل اكثر من الفي عام حملت مثل هذه السفن البخور والمر الى قنا وعدن ونقلت عبر البحار اجيالا من حجاج مكة وآلافا من العبيد . وحسب الرياح الموسمية فقد أبحرت هذه السفن بين الهند والجزيرة العربية وافريقيا عن طريق الخليج بمحاذاة الشواطىء سالكة أقدم الطرق البحرية التجارية في العالم . ان الاضافة الجديدة الى هذه السفن الشراعية هي موتور الديزل الموجود بداخلها . أما الأشرعة المنحنية على ظهور السفن فقد بقيت كاحتياطي للاستخدام في حالة الطوارئ عندما يصاب الموتور بعطب . ولا تزال تستعمل الآلات (على سبيل المثال المثقاب والمواد التقليدية (مسامير صنعها الحدادون واخشاب العلب) في بناء واصلاح السفن ، بما في ذلك سفن النقل الكبيرة كالسنبوق والزعيمة والزورق وقوارب الصيد الصغيرة حيث تمكنت من ملاحظة ربط الألواح اثناء وجودي في مدينة الشحر .

هنا وفي بداية لسان أرضي تقع عليه مدينة المكلا القديمة يمتد أحد موانىء الداو بترسانته البحرية . ففي هذا المكان كان يتم تفريغ كل السلع حيث وجب حملها فيما بعد بواسطة الجمال العديدة الى وادي حضرموت . وفي السنوات العشر الأخيرة أقيم رصيف محكم للميناء حيث ترد الى هنا باستمرار السنابيق محملة بالحبوب والزبدة من ممباسا وباخشاب البناء من اندونيسيا كما تقوم بنقل السلع الاقتصادية الحديثة من منطقة الخليج العربي الى عدن مارة بمحاذاة السواحل . ويعتبر ميناء خلف الذي انشئ لسفن اعالي البحار والواقع على بعد كيلومترين شرق المكلا ميناء حديثا ، حيث سيصبح — مثل مطار الريان الجوي العالمي — شريان الحياة لحضرموت الجديدة .

واحات واطلال

ومن القرية الصغيرة شحير الواقعة في مجرى مياه وادي حويره لم نختر هذه المرة طريق الشاطئ المعتاد الى الشحر ، بل سافرنا مباشرة بالسيارة . شمالا عبر طريق صخرى غير ممهد الى غيل باوزير . هذا هو اسم المدينة الصغيرة المشهورة لدى كل اليمنيين المدخنين . فهؤلاء المدخنون يفضلون التبغ الحموي الذى يزرع في غيل باوزير . لقد نال التبغ هذا الاسم نسبة لقبيلة الحموم البدوية التى لا زالت تعيش حاليا في حضرموت . فالرائحة المنبعثة من هذا التبغ مصدرها الأرض التى ينبت فيها والسماد المكون من العيد (وزيف) وكذلك من الريش أى فضلات الطيور . وقد تم تصدير هذا التبغ في السابق الى مصر وسوريا حيث مثل مصدر دخل دائم للسلطان القعيطي التابعة له منطقة غيل باوزير . ويتمتع التبغ الحموي وكذلك الحناء الذى هو ايضا من نوع ممتاز بسمعة طيبة لدى الزبائن المحليين والأجانب والأفارقة .

وفي رحلتنا المستمرة نحو الشرق شاهدنا آبارا محفورة حديثا وخزانات مرتفعة للمياه واطلالا . باستمرار توجد هذه الشواهد لماضي متحرك وغير مأمون . هنا توجد قلعة الصداع تليها آثار طينية لمدينة صامتة تدعى شكلينزا . ومن البعد شاهدنا على هضبة أمام تباله البقايا المهيبة لحصن الشيخ علي الذى يقف مواجها للواحة الخصبة تباله ذات المياه الجارية الساخنة والغنية بالكبريت والتى يستخدمها المرضى أملا في الشفاء من أمراضهم .

لقد عرف ماركو بولو الشحر من قبل

ان ما أثار انتباهي في مدينة الشحر القديمة هو (العيد) وسور المدينة . والمقصود بالعيد التى هى أهم منتجات الشحر ، آلاف الاسماك الصغيرة المعروفة بالسردين والتى تجفف في الرمل الحار تحت اشعة الشمس الشديدة وتستخدم كسماد في الحقول ومزارع التبغ وكعلف مهم للماشية . واذا ما ضغطت وحفظت جيدا فهى غذاء ذو قيمة عالية للانسان . هذه المادة المركزة من الزلاليات يمكن حفظها لفترة غير محدودة ونقلها الى مناطق بعيدة . لهذا يتاجر بها الصيادون مع البدو منذ أجيال على أسس سلمية . والشحر غنية

بالصيد مثل سمك التونه والديزك وسمك القرش الصغير والكبير والسمك الصخرى والشروخ واحيانا السلاحف البحرية وسمك البنجيز ، حيث تستخدم الشباك والقوارب لصيد تلك الأسماك . لقد كان هذا النوع من الاصطياد موجها لتلبية متطلبات التموين الداخلي والتجارة المحدودة ، الا ان حجم الاصطياد قد ارتفع بعد توحيد الصيادين في تعاونيات سمكية . ووفقا للتقديرات فانه يمكن سنويا اصطياد اكثر من نصف مليون طن من الاسماك ذات القيمة الغذائية العالية امام سواحل البلد ، وباستمرار يتم توسيع اسطول الصيد في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وتمنح للدول الأخرى تراخيص لصيد الأسماك كما يتم تشجيع مشاريع صناعة الأسماك من خلال الاستثمارات الكبيرة .

هنا على الشاطئ عثرت على البقايا الهائلة لسور المدينة الذى كان يحمي جانبى المدينة ويمتد اكثر من مئة متر نحو البحر . وعن طريق ابواب في السور المنحنى من ناحية البر يتم اغلاق المدينة . وقد طفت حول المدينة برفقة السيد عمر بازرقان احد الموظفين بالمركز اليمني للابحاث الثقافية والآثار والمتاحف . لقد اصبحت بعض اجزاء السور الطيني متحللة بينما هدم الجزء الآخر منها لبناء بيوت سكنية جديدة محلها ، وسوف يأتى يوم يختفي فيه السور كما حصل لكثير من مدن حضرموت . ويدرك المركز اليمني للابحاث الثقافية والآثار والمتاحف أهمية التراث الثقافي ، لهذا فهو يستخدم كل امكانياته للحفاظ على هذه الآثار بما في ذلك بوابتى مدينة الشحر التي تعد من الآثار القليلة التي قاومت التحلل والتهدم في البلاد . فباب (سدة) العيدروس لا تزال في حالة جيدة نسبيا اما الحفاظ على سدة الخور فيتطلب الأمر اعادة بنائها من جديد .

وينطبق نفس الأمر على مدينة الشحر القديمة . فهى أقدم من المكلا — كانت الشحر في القديم ميناء مشهورا — وقد نالت في زمن الرسوليين (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى) شكلها المعمارى الاساسي . وقد تهدم الجزء الأكبر من الشحر اثناء محاولة البرتغاليين الاستيلاء عليها في عام ١٥٢٢ م . فقد دافع الصيادون والفلاحون اليمنيون وكذلك الصومال والهنود جنبا الى جنب عن مدينتهم لمدة ثلاثة ايام متوالية . وقد راح ضحية هذا العدوان حوالى الف شخص . وقد تم في عام ١٩٧٧ م بناء ضريح للقادة السبعة الذين استشهدوا في معركة الدفاع عن مدينة الشحر . وعندما دخل ليو هيرش الشحر كان قد تألق آنذاك نجم مدينة المكلا التى اصبحت المقر الرئيسي لسلطان المكلا والشحر . وقد تحدث فان در ميولن وفيسمان عن « مدينة شبه ميتة » يحيط بها سور كبير . ان هذه الحالة تنطبق على المدينة القديمة حتى يومنا هذا . فكثير من المبانى القديمة مهددة بالانهيار والسقوط ، كما تقام المنازل الجديدة دونما تصميم دقيق وشامل ، فضلا عن خطر تهديم المدينة بأكملها . لهذا يجب القيام بدراسة منظمة في المستقبل من أجل الحفاظ على التراث واعادة اصلاح البناء المتهدم وكذا الحفاظ على البناء الجديد . لقد وعدت اصدقائى في اليمن الديمقراطية بالعودة لمساعدتهم في تنفيذ هذه المهمة وفي الحفاظ على بوابتى مدينة الشحر . فقد قلت لهم : سأعود « ان شاء الله » .

اقتفاء آثار طريق البخور (شتاين)

« الخيل والليل والبيداء تعرفني .
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(هذا البيت للمتنبي الشاعر العربي الحضرمي)

ضيفا على مربي الجمال

كانت الساعة تشير الى ما بعد منتصف الليل عندما نزلنا من السيارة أمام بيت الضيافة في ثمود . كنا آنذاك منهوكي القوى مغطين بالغبار . لقد استغرقت رحلتنا الخطيرة أكثر من سبع ساعات عبر الجسول الممتد الى ما لا نهاية بينما المسافة التي تربط تريم بثمود جوا لا تزيد عن مئتين وستين كيلومترا . ولولا المعرفة الأكيدة بالطرق من قبل المرشدين الذين رافقانا في تلك الرحلة لما استطعنا التعرف على الطريق بين الهضاب العالية الفقيرة بالنباتات في ظل ضوء القمر الخافت . ولا توجد لوحات اشارات الطرق في تلك الصحراء لهذا لا يعرف المرتفعات والوديان الا ان عاش هناك منذ الطفولة ، فهو وحده قادر على ايجاد مخرج من هذه الأراضي المقفرة . لقد قدمت لجنة منظمة الحزب الاشتراكي اليمني بمديرية سيئون شابين لطيفين كحارسين مسلحين لرحلتنا التي ستقطعها قرب منطقة الحدود مع المملكة العربية السعودية ، فضلا عن ان العطابات المضادة للثورة — ما يسمى بـ « جيش الانقاذ الوطني لحضرموت والمهرة » التي أوجدتها قوى السلطة البائدة المخلوعة والمدعمة من قبل مخابرات الولايات المتحدة الامريكية كانت تتسلل الى داخل أراضي جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية للقيام بأعمال ارهابية وخلق جو من عدم الاستقرار في البلاد .

التقدم في حياة البدو

في الصباح الباكر رحب بنا مأمور مديرية ثمود (صالح المنهالي) وهو بدوي في الثلاثين من عمره ضامر الجسم مملوء حيوية ونشاطا . وفي لقائنا معه اراد معرفة متطلباتنا لبرنامج رحلتنا .

يعيش في مديرية ثمود حاليا ٤٢٠٠٠ بدوي ينتمي غالبيتهم الى قبائل المناهيل والعوامر مع وجود ممثلين لقبائل الصيعر والكرب . ويرتبط هؤلاء جميعا ارتباطا شديدا بأسلوب حياتهم التقليدية حتى الوقت الحاضر ، أي أنهم يقومون بتربية الجمال والماعز والأغنام التي ترعى الكلأ في الوادي على الحافة الجنوبية لصحراء الربع الخالي ، التي تشكل حاجزا بين الجزء المركزي لشبه الجزيرة العربية وجنوبها . لقد استقر جزء قليل من السكان البدو أي حوالي ٥ بالمائة فقط في مجموعات سكنية نموذجية ذات بناء متساوي واشكال متشابهة انشئت لهم على حساب الحكومة بالقرب من بئر ثمود في السنوات الأخيرة . وثمود هو أسم قديم لقبيلة ذكرت عدة مرات في السورة الحادية عشرة من القرآن الكريم .

ويوجد في ثمود مدرسة كبيرة لابناء البدو الرحل يتم فيها ايضا تعليم بنات البدو . وتضم هذه المدرسة داخلية يقدم فيها الأكل لهؤلاء مجانا ، بينما يترحل أهاليهم في رعي قطعان ماشيتهم . والى جانب ذلك وضع تحت خدمة سكان ثمود مركز ثقافي به مكتبة وروضة أطفال ومقر لتعليم الخياطة يتم فيه تدريب نساء البدو على الحرف التقليدية . ولدى زيارتنا لهذه المدرسة الجديدة تحصل كل فرد منا على عمامة للرأس موشاة بالصوف المنسوج بالألوان الزاهية كهدية تذكارية .

ويوجد في ثمود أيضا وحدة صحية ومركز للطب البيطري . وقد صادفت زيارتنا لثمود فترة انتظار المواطنين لقدوم البعثة الطبية المتخصصة التي وجدت حتى ذلك الحين باعداد قليلة فقط . وبشكل عام يعيش في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حوالي ٢٠٠٠٠٠ من البدو الرعاة فيشكلون بذلك حوالي ١٠ بالمائة من اجمالي السكان . وقد أثرنا في المقدمة لهذا الكتاب الى أهمية البدو في قديم الزمان حيث مثلوا كمصدر لجمال النقل على طريق قوافل البخور عاملا اقتصاديا هاما . وانطلاقا من ذلك يمكن القول بأن الثروة الحيوانية الأجمالية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية توجد حاليا في حوزة البدو حيث يظهر هنا بوضوح أهميتها الاقتصادية . فهنا توجد احتياطيات كبيرة للاقتصاد الوطني لهذه الجمهورية الفتية النامية .

وعموما يمكن القول ان بدو جنوب شبه الجزيرة العربية يختلفون سواء من الناحية السلالية أو من الناحية الثقافية في كثير من الخصائص عن جيرانهم في الشمال وفي وسط الجزيرة العربية . يظهر هذا بشكل خاص في مجال الثقافة

المادية أي في الملابس والمجوهرات وأدوات البيت وطريقة السكن . فبينما تمثل — على سبيل المثال — الخيمة المكونة من شعر الماعز الأسود مقرا للسكن لدى ممثلي الثقافة البدوية الشمالية ، يسكن ثلثا البدو في جنوب شبه الجزيرة العربية في كهوف طبيعية على حافة الجبال يستبدلونها بكهوف أخرى في حركة ترحالهم المنتظمة . ولا يمكن بأي حال من الاحوال اعتبار الكوف مرتبة بدائية فهي تقدم في ظل الظروف الصعبة لهذه المنطقة الحماية لساكنيها كالبيت القوى .

واليوم لم يعد الجمل وسيلة المواصلات الوحيدة كما كان عليه الوضع في العصور الماضية ، فقد أصبح الكثير من البدو ملاكا لسيارات التيوتا الصالحة للمناطق الوعرة بحيث تساعدهم في نقل مياه الشرب وفي السفر لزيارة الأسواق المحلية . ويتم جلب غالبية هذه السيارات من المملكة العربية السعودية ودول الخليج المجاورة حيث تشكلت بذلك وحدة نقدية : ثلاثين رأس من الغنم المعد للذبح تعادل حاليا قيمة السيارة اليابانية المطلوبة ، حيث يمكن بواسطة العربة عبور الصحراء براحة وسرعة وليس كما كان عليه الحال في السابق بواسطة الجمال . ولا يملك البدو رخص قيادة لسياراتهم التي لا تحمل اشارات الشرطة ، لهذا يسمح لهم باستخدام تلك السيارات في المناطق الصحراوية فقط ، حيث تنعدم مراكز شرطة المرور واشارات الأرشاد .

ويترك بعض الشباب البدو المحبين للمغامرات والباحثين عن الثروة عشيرتهم لسنوات عديدة من أجل تجريب حظهم في دول البترول المجاورة ثم يعود الفرد منهم في يوم من الأيام الى وطنه فخورا بسيارته بعد ان عمل كسائق في حقول البترول أو كعامل مساعد في كسب « البترودولار » المطلوب . ومرافقنا كرامه يعتبر واحدا من هؤلاء السعداء ، فبعد عودته من المهجر لم يجد صعوبة في الحصول على عروسة مناسبة له لأن مالك السيارة التيوتا يعتبر « زوجا صالحا » .

ولكن كيف كانت حياة هؤلاء البدو قبل الثورة ؟

تميزت حياة الناس البسطاء بالاستغلال الذى لا رحمة فيه من قبل شيوخ القبائل الاقطاعيين والسلاطين والأمراء وكذلك بعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي والنقص في مياه الشرب والمواد الغذائية الضرورية الى جانب انتشار الأمراض والأمية بين صفوفهم . ومن هذه الخلفية يمكن ملاحظة الجهود والانجازات الكبيرة التي تحققت في هذا المجال في السنوات القليلة منذ نيل الاستقلال الوطني بفضل القيادة السياسية الحكيمة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

ومن حيث مستوى تطورهم الاجتماعي والاقتصادى يوجد هؤلاء البدو حاليا في مرحلة الانتقال الى المجتمع الطبقي مع ملاحظة قليلة أو كبيرة لبقايا التنظيمات القبلية . فعلى اساس الملكية الخاصة للمواشي نشأت العبودية التي الغيت في جنوب اليمن من خلال التحولات الثورية بعد عام ١٩٦٧ م . ان هذا التحول في العلاقات القائمة قد غير كثيرا من الحياة الجماعية للبدو . فبينما حدد الصراع حول مصادر المياه واراضي الكلأ حياة البدو في الماضي ، فان عادات الثأر والحروب القبلية قد أدت الى اضطرابات مستمرة أثارها امراء القبائل الصغار ارضاء لأهوائهم في السيطرة . أما اليوم فقد اقترب البدو كثيرا من بعضهم البعض . اذ لم تعد كثيرا العصبية هي الخاصية الحاسمة في ذلك ، وانما نشاط الفرد في جماعته ومساهمته في النضال التحررى ضد المضطهدين المستعمرين والمحليين .

وبالرغم من ذلك فقد ظلت التقاليد الحربية للبدو وحبهم للاسلحة حية حتى يومنا هذا ، الا ان هذه الصفات قد وجهت الى قنوات جديدة . ففي مناطق البدو — كما هو الحال في كل مناطق البلاد — كونت لجان الدفاع الشعبي حيث يقوم الرفاق من الحزب الاشتراكي اليمني بعمل تربوى ايديولوجي داخل هذه التنظيمات . وخلافا للأهداف السابقة التي من أجلها حمل البدو السلاح يحمل هؤلاء اليوم الكلاشينكوف لحماية حدود جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الغير محددة المعالم بشكل دقيق .

وخلال رحلاتنا في المناطق القريبة والبعيدة من المجموعات السكنية استقبلنا البدو في كل مناطقهم بالترحاب حيث قدموا لنا لبن الجمال أو الشاى . وفي وقت الظهيرة زرنا أحد كهوف المناهيل الواسعة . هناك بذلنا جهودا كبيرة لاقناع ربة هذا البيت بضرورة العدول عن فكرتها المتصمنة ذبح رأس من الماعز بهدف تقديم لحمه على شرف ضيافتنا . وقد علمنا ان الرجال كانوا آنذاك غائبين عن البيت في رعى قطعان ماشيتهم ، الا ان ذلك لم يمنع ربة البيت من القيام بواجبات الضيافة . ان هذا الموقف يميز الوضع الحر للبدوية مقارنة مع نساء المدن والقرى اللواتى يستخدمن الحجاب حتى يومنا هذا ويخضعن اجتماعيا للرجال . ولم تعترض نساء البدو عندما وجهت عدسة الكاميرا نحوهن للتصوير ، بل بالعكس فقد سررن كثيرا وتطلعن الى العدسة بكل ثقة .

وعند بئر مكسر الذي افتتح حديثا حيث تستخرج مياهه الصافية بواسطة مضخة ديزل من عمق يزيد عن مئة متر لتحفظ في خزان احتياطي كبير يحيط به سور، لاحظنا حركة قدوم وذهاب قطعان الماشية ترد الى هذا المكان للشرب. ويوجد حوضان طويلان مختلفان للسقي، احدهما للجمال والآخر للأغنام والماعز، يتم املاؤهما بالماء دائما من قبل العامل المسئول رسميا عن البئر، الذي يقوم بفتح وإغلاق الصمام حسب الطلب. ان الذي يعرف مدى صعوبة جلب المياه من الآبار العميقة بواسطة الحبال والدلاء في الماضي، يستطيع وحده تقدير التقدم الكبير الذي طرأ على حياة البدو. فقد أتيحت لهم هذه المنشآت الحديثة لاستخراج مياه الشرب. ففي منطقة ثمود حفر اكثر من سبعة عشر بئرا عميقا، مجهزا بالآلات الحديثة حيث يحصل البدو على المياه مجانا. وبالرغم من تحقيق كل النجاحات لا تزال هنالك مهام كثيرة يجب حلها في التطور اللاحق، ويشمل ذلك التغلب التدريجي على الاقتصاد العيني التقليدي للبدو وذلك من خلال التوجيه المنظم للانتاج السوقي لتصبح ثروة البدو الحيوانية في خدمة اقتصاد هذا البلد. ويمكن تأسيس تعاونيات لتربية المواشي، اذ ان فرص النجاح ممكنة لما لدى البدو من تقدير للعمل الجماعي الذي يطبع حياتهم. ويجب هنا مراعاة الخبرات الفنية التي جمعتها الشعوب الرعوية في الاتحاد السوفيتي وجمهورية منغوليا الشعبية في هذا المجال وكذا الاستفادة من الاخطاء التي حصلت في مختلف البلدان النامية لدى محاولة توطين البدو في الماضي. ان نتائج الاجراءات القسرية قليلة، لهذا فان احد الشروط الهامة لنجاح ذلك هو المساهمة الفعالة للبدو أنفسهم في هذه العملية.

في أرض المهره

أقلتنا طائرة صغيرة تابعه لشركة طيران اليمن الديمقراطي (اليمدا) خلال خمسة وسبعين دقيقة بأمان من مطار الريان الى الغيضه عاصمة المحافظة السادسة « حاليا محافظة المهره » التي يشكل المهره غالبية سكانها. وقد تمت رحلتنا عبر خط الطيران المار بمحاذاة الساحل حيث شاهدنا من الطائرة قمم الفقاقيع البيضاء لأمواج البحر الزرقاء العميقة ترتطم باستمرار على الشاطىء. ويؤثر في النفس تلك المنظر المهيب للصخور الصماء الوعرة الشاهقة والمرتفعة قرابة الف متر خلف الساحل الضيق، حيث تتخللها الوديان العميقة. ووادي المسيله هو الوادي الوحيد الذي تجرى فيه المياه طول العام. كما ان دلتا هذا الوادي العريضي التي طرنا فوقها كانت في الماضي نقطة انطلاق للقوافل التة شارت في مجرى الوادي محملة بالبخور الى منطقة حضرموت.

وبعد هبوط طائرتنا في مهبط طبيعي قاعدته صخرية احاط بها فورا جمع غفير من الناس، جاء بعضهم لاستقبال وتوديع المسافرين بينما كان البعض الآخر في الآخر طريق سفره الى خارج البلاد. ويتميز السكان المهره من حيث الاصل بميزات خاصة تبعدهم عن العرب، فلديهم لغتهم الخاصة التي هي من لهجات الجنوب العربي، كما انهم يختلفون في الملابس والحلي والعادات عن جيرانهم سكان المناطق الغربية من الجمهورية. واليوم يتعلم اطفالهم في المدرسة اللغة العربية التي هي اللغة الرسمية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

صيادون، فلاحون ورعاة

يكسب المهره البالغ عددهم حوالى ١٦٠٠٠٠ شخص رزقهم بأساليب مختلفة: ففي المناطق الساحلية يقومون بصيد الأسماك، بينما في المناطق الجبلية المطرة يزراعة الدخن وتربية الماشية. والعديد من المهره يعيشون رعاة للجمال والماعز والأبقار في الجبال، اما في المناطق الصحراوية الداخلية للبلاد فيعتمدون أساسا على الجمال. والجمال المهرية الضامرة الجسم والفاتحة اللون مشهورة بسرعتها وصبرها فضلا عن ان السفر عليها مأمون لقدرتها على شق طريقها في الجبال ليلا. هذه هي الخصائص الهامة لهذه الجمال. لقد راقبتها واقفة حتى البطن في مياه مجارى السيول ترعى النباتات المائية، وفي الشاطىء تلتهم السردين الطازج تحت أشعة الشمس. ويبدو انها تميل الى الرعي في المناطق الجبلية ذات الاشجار في منطقة حوف. فقد شاهدتها وهي تتسلق المناطق المرتفعة لتأكل اوراق اغصان الأشجار.

وتقع وراء منطقة حوف مباشرة الحدود الرسمية لسلطنة عمان التي يكون اقليم ظفار وسكانه المهره القسم الغربي منها. فقد تم منذ قديم الزمان بل وحتى الى عهد قريب تجميع صمغ من أشجار اللبان البرية بكميات كبيرة، الا ان هذا الفرع من مصدر الرزق قد تدهور نتيجة نقص الأيدى

العاملة من خلال تطور صناعة البترول في الدول المجاورة .

وقد شهدت مناطق الحدود صدامات دموية بين القوى الشعبية المسلحة وجنود سلطان عمان ذهب ضحيتها عدد كبير من المدنيين ، غير ان الحالة هدأت في السنوات الأخيرة . ففي اكتوبر ١٩٨٢ م أبرمت عبر وساطة دولتي الكويت والامارات العربية المتحدة معاهدة تنص على ضرورة حل قضايا النزاع بالطرق السلمية والسعي نحو الرسم النهائي للحدود المعلمة جزئيا عن طريق المفاوضات .

سمك القرش والشروخ

تقع على مسافة ستة كيلومترات من الغيظه قرية للصيادين تدعى محيفيف . هناك اتحد حوالى الف سهرى في تعاونية للصيادين . وترسو قوارب الصيد على الشاطىء وراء مزرعة أشجار جوز الهند الرفيعة مباشرة . يتألف طاقم قارب الصيد البالغ طوله ثمانية الى عشرة أمتار من ثلاثة الى اربعة رجال . ويبحر الصيادون بقواربهم المجهزة بموتورات قوية مثبتة خارج ظهر القوارب عدة كيلومترات في البحر حيث يلقون شباكهم في مياه خليج القمر الغنية بالأسماك . ويتم اصطياد القرش والسمك الصخرى بالشباك والصنانير التى توضع ليلا . ويعتبر خليج عدن من الخلجان الغنية بالأسماك في العالم . فبواسطة الرياح الموسمية يتم تغذية طبقات الماء العميقة بالعوالق ذات القيمة الهامة في تغذية الأسماك . وقد عاد في تلك اللحظة قراب محمل بأسماك كثيرة من السردين تم تفريغها من الشباك المتمثلة في مكان يبعد مئة متر عن الشاطىء لتجفف مباشرة على الرمل الساخن . والى جانب ذلك تقوم مجموعة من الرجال بترتيب السردين الملقى على الأرض والذى تفوح منه رائحة كريهة نفاذة في الهواء لا تزعج أعضاء التعاونية لأنها تعني في النهاية الربح ومصدر الرزق . ويعبأ السردين المجفف « العيد » الذى يستخدم كغذاء يحفظ للانسان والحيوان ، في اكياس للمتاجرة بها في المناطق الداخلية للبلاد . ونفس الأمر ينطبق على سمك القرش بعد تجفيفه وتحويله الى « لحم » حيث تجلب زعانفه ارباحا كبيرة ، وسمك القرش الطازج المعد للأكل لذيذ للغاية . والى جانب ذلك توجد هناك قوارب أخرى مجهزة بسلال الشروخ . وتتم اصطياد هذه الحيوانات البحرية اللذيذة الطعم والمطلوبة دوليا بكميات كبيرة في خليج القمر حيث تجمد بعد اصطيادها مباشرة ثم تصدر الى الدول ذات الزبائن القادرين على الشراء .

وتمتد فترة الاصطياد هنا من اكتوبر الى يوليو . وتعتبر الأسماك في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حتى الوقت الحاضر سلعة تصدير من الدرجة الاولى . وعندما شاهدت اسماك القرش الملقاة على الأرض صرت ببطء الى خليج القمر للسباحة في مياهه الصافية ، فقد اطمأنيت لكلمات أحد الصيادين المهرة حين قال : « ان اسماكنا القرشية يمنية اصيلة ، مؤدبة ومسالة للغاية . فعندما لا تؤذيها لا تهاجمك » . ولولا ان الرجل كان محقا في قوله لما كتبت هذا الوصف كله .

زيارة شبوه

كانت شبوه التى هى في القرن الثالث الميلادى عاصمة لحضرموت القديمة الهدف لرحلتنا الأخيرة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . انطلقت رحلتنا من مدينة عتق عاصمة المحافظة الرابعة (حاليا محافظة شبوه) عبر الصحراء حتى وصلنا الى تلك الآثار المهيبة . لقد كانت شبوه « مدينة محرمة » لسنين عديدة ، لهذا لم يتمكن الباحثون من الوصول الى هدفهم المنشود . والمناطق المجاورة لعتق خضراء بأشجار الأثل والسنط ، الا ان هذه النباتات تتناقص بشكل ملحوظ بمجرد قطع العشرين كيلومترا الأولى في اتجاه الشمال ، غير ان قطعان الماشية العديدة التابعة للبدو تجد معيشتها في تلك الأرجاء حيث شاهدنا باستمرار الخيمات الصغيرة للرعاة المنتمين الى قبيلتى الكرب وآل بريك المشهورتين . وخلال رحلتنا الى شبوه صادفنا في منتصف الطريق البالغ طوله حوالى مئة وخمسة وعشرين كيلومترا قافلة تتألف من ثمانين جملا محملة بالملح ، بحيث حمل كل جمل كتلة من الملح مربوطة بعناية بواسطة الحبال على يسار ويمين سنمة . ولاستخراج الملح من جبال شبوه تقاليد قديمة تأخذها الحكومة بعين الاعتبار كى تؤمن استخراج ونقل الملح قانونيا بعد ان ظل ذلك امتيازا للبدو الذين يعيشون في تلك المناطق . ولا يزال يطلق على الريح الشمالية التى تهب من جهة شبوه اسم « ملحي » .

ويذكرنى منظر القوافل الكبيرة بالماضي البعيد حيث سادت على طريق البخور هنا حركة تجارية نشطة تم فيها نقل البخور ذى الرائحة الزكية ليس الى شبوه فحسب بل أيضا الى الشمال حتى منطقة البحر الأبيض المتوسط .

شواهد التاريخ

اخيرا شاهدت أمامي الموقع التاريخي الشهير شبوه : وهي مساحة هائلة من الهضاب الأثرية وبقايا جدار عال . ووضع سائقنا السيارة التيوتا تحت ظل أشجار السنط بالقرب من بئر « ديبانه » ذي المياه المالحة والواقع عند المدخل الجنوبي للمدينة . وفي حر الظهيرة المشل للنشاط جلست على حافة سور البئر اتأمل في منظر المدينة الاسطورية المؤثر في النفس . لقد وردت الى ذاكرتي كلمات هانز هلفريتز الذي هو أول اوروبي وصل الى شبوه في العصر الحديث . فقبل خمسين عاما بالضبط كتب قائلا : « لقد علمنا ان سكان المناطق البدوية الفقيرة الذين يعيشون اليوم على انقاض المدينة السبئية القديمة لن يعترفوا اطلاقا بان اجنبيا قد دخل مدينتهم . فالأوهام والفقر تقودهم الى اتخاذ هذا الموقف ، فهم يعتقدون ان هناك كنوزا هائلة مطمورة تحت خرائب هذه المدينة ويخافون ان يستولي عليها أجنبي . ورغم فقرهم المدقع — لأن مصدر رزقهم الوحيد هو بيع الملح الذي يستخرجونه من جبالهم — فانهم لم يسمحوا لأحد بدخول المدينة الغامضة في مقابل نقود او هدايا ثمينة . فلكي ندخل اليها رسمنا خطة حربية محكمة وهي دخول المدينة بغته ليلا وقد نجحنا في ذلك . »

وبعد مرور خمسين عاما وبالدقة في السادس من ديسمبر عام ١٩٨٢ م لم تعد هناك ضرورة لهذه المغامرة . فقد قادني ابناء البدو اليقظين من قبيلة آل بريك بطريقة ودية الى هناك حيث زودوني بالمعلومات وردوا بطيب خاطر على الاسئلة التي وجهتها لهم . وقد سألوني عن حال جان فنقا وريمي وليلي وجاكسوس : هل هم في صحة جيدة ؟ ومتى سيأتون الى شبوه لمواصلة حفرياتهم الناجحة ؟ لقد اجبت على تلك الاسئلة بعد ان ادركت انهم يسألون من الفرنسيين الذين قاموا في السنين الأخيرة تحت اشراف جاكلين بيرن بالبحث المنظم عن الآثار في شبوه ونشرت في عام ١٩٨٢ م نتائج بحوثهم في دراسة قدمت بلغات متعددة .

لقد وجب عليّ الاجتهاد في تصوراتي للحصول على صورة حية للحياة التجارية المتنوعة والمليئة بالحركة في هذه العاصمة التجارية في زمن ازدهار المملكة الحضرمية . فالمعابد ذات الأعمدة والقساوسة الوقورين والمكلفون بجمع الضرائب وقادة القوافل القلقون والحمالون المتصببون عرقا والخدم ذوو البشرة السوداء أحد المناظر الحية في المباني العالية المبنية من الطين في مدينة شبوه التي كانت مركز مملكة حضرموت العظيمة . ومن أحجار هذه المدينة التي دمرت في الحرب قبل ١٧٠٠ عام ، شيدت فيما بعد المباني الحديثة التي يعيش فيها اليوم سكان القرى الثلاث : حجر وميتانا وموران الذين يكسبون عيشهم في العمل كمساعدين في الحفريات وفي تربية الحيوانات . وعلى الحافة الشمالية لمدينة شبوه القديمة توجد المناجم الغنية بالملح الحجري الذي لا يزال يستخدم حتى اليوم حيث يقوم ابناء شبوه النشطاء باستخراج الملح عن طريق ضرب الصخر بمعاولهم .

من راع الى طيار

يسكن في قصر الشريف حسين الحاكم السابق لامارة بيحسان اربعمائة وثمانون من ابناء البدو الرحل الذين يتعلمون في مدرسة « الشعلة » الموحدة ذات الثمانية صفوف حيث تصرف لهم على حساب الحكومة الملابس والغذاء والسكن بل وتكاليف السفر الى اسرهم لقضاء ايام الاجازة والعطل الرسمية . وقد تم خلال السنوات الماضية فتح ثمانية وعشرين مدرسة لابناء البدو الرحل في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية يدرس فيها ٢٥٠٠ تلميذ وتلميذة . ولا شك ان تلك المدارس هي أحد المنجزات العظيمة لحكومة الثورة . تتضح هذه الحقيقة بشكل خاص في ان مثل هذه المؤسسات التعليمية لم تكن معروفة في كل انحاء البلاد قبل الثورة . فقد وجدت آنذاك بعض الكتاتيب فقط . لهذا فقد تطلب ذلك جهودا مستمرة لاقناع الآباء والأمهات الاميين بضرورة التحاق ابنائهم بالمدارس . فلا تزال حتى الآن نسبة البنات قليلة في هذه المدارس حيث اقتصر مجال عمل الفتيات — حسب التصورات التقليدية البدائية للبدو — في البيت لاحتمال ان يتم زواجها في وقت مبكر . ونالت هذه المدارس احتراما وسمعة واسعة كما يتعلم فيها ايضا تلاميذ من شمال الوطن اى من الجمهورية العربية اليمنية .

وقد استغربت عندما علمت في البداية ان الفصول تمتلئ تدريجيا بالتلاميذ منذ بداية العام الدراسي ، ويعود ذلك كما اتضح فيما بعد الى ان بعض أسر التلاميذ تقيم قريبا من المدرسة . بينما ترعى الأسر الأخرى قطعان الماشية في المراعي البعيدة . وتحاول أجهزة الحكم المحلي التأثير على أسر هؤلاء التلاميذ ودفعهم نحو الاستقرار بالقرب من

مدارس ابناء البدو . ويتم بهذه الطريقة انتقال البدو تدريجيا الى نظام الحياة المستقرة . وكما هو معروف فان هذه العملية الطويلة الأمد تتطلب مساعدة كبيرة من قبل الدولة . وقد شاهدت مرارا في ضواحي بيحان اولئك البدو الذين استقروا هناك ثم فقدوا مساكنهم نتيجة لكوارث السيول في ربيع عام ١٩٨٢ م مما اضطرهم العودة بما تم انقاذه من ماشية الى حياة التجول . وعندما سألت التلاميذ البدو عن رغباتهم الوظيفية بعد الدراسة أجابوني : مدرس ، طيار ، ضابط ، طبيب ومهندس . من ذلك يتضح انه أصبح لهؤلاء الشباب تفكيرهم الخاص حول المستقبل وان تربية الجمال لم تعد تحتل مركز الثقل لتصوراتهم .

وبعد ان زرنا المدرسة الداخلية دعانا المدرسون لتناول الطعام المكون من عصيدة دقيق الذرة ولحم سمين الى جانب قطع من لحم الضان المطبوخ وكذلك البرتقال الحلو من مزرعة المدرسة . وبعد الانتهاء من شرب الشاى علمت ان بعض هؤلاء المدرسين البالغ عددهم ثلاثين شخصا قد تعلم في هذه المدرسة ثم تلقى بعد ذلك دراسة متخصصة في كلية التربية بعدن . في تلك الأثناء انتهى التلاميذ من تناول وجبة الطعام ثم قدموا لنا برنامجا تخللته الأشعار والأغاني والرقص . وقد أدوا ذلك بمرح وحيوية كثيرين .

خاتمة

بدأ التقييم الأولى لنتائج هذه الرحلة الدراسية لوادى حضرموت بعد عودة مؤلفي هذا الكتاب مباشرة الى عدن حيث وجهت لهما الدعوة لالقاء محاضرات ومقابلات صحفية وتلفزيونية .

وقام المهندس كارل هاينس بوخو بتنظيم معرض للصور تحت عنوان « الفن المعمارى والمناظر الطبيعية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » تم افتتاحه اولا في عدن ثم عرضت صور المعرض فيما بعد في بعض المدن الأخرى للبلد . كما اقيم هذا المعرض في بلغراد بمناسبة انعقاد ندوة اليونسكو عن مدينة شبام لتعريف الرأى العام العالمي بهذه المدينة ، فضلا عن ان هناك نتائج اخرى نشرت في المجلات التخصصية ونوقشت في المؤتمرات العلمية . هذا ومن المنتظر ان تستمر أعمال البحث في هذا البلد الصديق .

نصوص لصور من حضرموت

الصور الملونة من رقم ١ الى رقم ٨ تشير الى :

سيئون
المكلا
شبام
سكان الجبال
. . . وسكان الوديان
ينابيع غيل عمر

٥٧ – عدن : منظر من جبل شمسان في المعلا الى خورمكسر
٥٨ – منظر صحراوى طبيعى في وادى العر
٥٩ – شجرة بنيان ، تين مضيق ، ابيفت متسلق يلف حول الشجرة ويخنقها
٦٠ – أعشاش طيور نساجة في شجرة سنط
٦١ – أ – ه :

صبار التين
البرتقال
شجرة القاروورة
شجرة البطيخ (الحجب)
شجرة لبن الذئاب

٦٢ – أحد المساجد الكبيرة بسيئون
٦٣ – تنحدر حوالي الجبل مسافة ٢٠٠ متر على سيئون
٦٤ – اتصال هام لقوافل التجارة بين شبوه وعدن عبر دلتا ابين ، آثار وخرائب العصور الوسطى لمنطقة العسلا تقف على أرض تاريخية لم تبحث من قبل علماء الآثار حتى الآن
٦٥ – في وسط مدينة سيئون القديمة توجد المقبرة الكبيرة وبها قبور الأولياء والصالحين .
٦٦ – أ – ب : تماثيل رخامية للملك أرسان ، من أثمن معروضات المتحف الوطني بعدن
٦٧ – في عام ١٩٣٥ م صور هانز هيلفرتز كارل اوروبى – خرائب وآثار ما قبل الإسلام في شبوه
٦٩/٦٨ – صورة تاريخية لمدينة سيئون ووادى حضرموت التقطت من الطائرة . نظرة في الجانب الغربى
٧٠ – بعض المواقع الأثرية تبين سلطة وأهمية الممالك القديمة . الآثار الحجرية لغائم الكفار في وادى أحور

٧١ – أ – ج
أحرف على جائط في اسماديه بمكيراس
كتابة على البوابة الجنوبية السابقة للمدينة في نقب الحجر ، صهاريج لا تزال قائمة في حصن الغراب

٧٢ – بقايا سور المدينة القوى في نقب الحجر
٧٣ – أ : نقوش حميرية في حصن الغراب
ب : منظر من حصن الغراب الى خليج ميناء البخور القديم (قنا)
٧٤ – معروضات ثمينة في المتحف الوطنى بعدن ، اصولها لم تعرف في الغالب . فقد عثر عليها البدو وقاموا بتسليمها . لوحة نذر من الرخام عليها صورة الالهه الجرئية للسعادة
٧٥ – أ – د :

قطعة عليها كتابة . . . وافريز مزين
لوحة نذر برأس ثور ، من الأرجح انها قتبانية الأصل
عقود بجوهرات ، من المحتمل انها مستوردة من منطقة البحر الابيض المتوسط
اباريق خضراء لامعة مصنوعة من الفخار ربما انها تعود الى القرن الثاني والثالث الميلاديين

٧٦ – أ : عربة الكاف ، التى سافر بها هانز ميلفرتز عام ١٩٣٣ م على طريق البخور . . . وهذا ما تبقى منها حتى الآن (٧٦ ج)
٧٦ – ب : قصر السلطان في سيئون
٧٦ – د : بلوى
٧٧ – صورة تاريخية للشبام . . . ولمدينة بضه في وادى روعن
٧٨ – أ : قرآن مفتوح في المسجد
ب : حارس على ضريح عبد الله يعقوب العباس بالشحر
ج : مجلد تاريخ من المكتبه الكبيرة بتريم
٧٩ – مقبرة في الغرفة ، نموذج الهندسة المعمارية
٨٠ – صعود من وادى همام الى الجول
٨١ – منظر بركانى في الجول يطل على خليج بير على وحصن الغراب
٨٢ – أ : تم اليوم انجاز هذا الطريق الذى يربط المكلا بوادى حضرموت
٨٢ – ب : جانب من طريق البخور القديم في وادى عدم
٨٣ – أ : دروب كثيرة يمكن اجتيازها بالسيارة اللاندروفر نقط عوامل التعرية في وادى عدم
٨٣ – ب – د :

هكذا تظهر اطارات السيارة الجديدة بعد قطع مسافة ٢٥٠٠ كلم تبديل الاطررات في الطريق شيء مألوف

٨٣ – ج : المؤلف ك. – ه. بونحو وحسن في طريقهما الى حضرموت
٨٤ – نظرة من السوق الى قصر السلطان السابق في سيئون
٨٥ – توجد كثير من هذه النوافذ في قصور سيئون القديمة
٨٦ – أ – ب :
الجمال تشرب عند الآبار. بمرور الزمن حفر الحبل الذي يستخرج به الماء من الآبار في الدعامة الخشبية
٨٧/٨٦ – جدولان للمياه (ساقيتان) في وادي حضرموت
٨٨ – ورشة صغيرة لصائغ فضة في سيئون
٨٩ – مصاغ فضي يمني تقليدي كما صنع في الشحر والمكلا وسيئون لعدة أجيال.
ويمكن ايضا الحصول عليه اليوم :
أ : سوار بفاصل للفتح
ب : مكان لحفظ الحجاب به أجراس كبيرة
ج : مخرمات بمعلقات مشغولة
د : اقراط في شكل كرة فارغة ولؤلؤ زجاجي
ه : مكان مزين لحفظ الحجاب
و أحزمة
٩٠ – سلال من سعف النخيل معروضة في سوق سيئون
٩١ – أ : حصيرة أكل مصنوعة من سعف النخيل
٩١ – ب : على انوال صغيرة تنسج الفوط اليمنية ذات الألوان الزاهية
٩٣/٩٢ – سوق صغيرة عند بوابة شبام
٩٤ – أ – ب : أشكال من الطوب الطيني (المرر) يجفف بالقرب من الغرفة في الهواء والشمس لعدة ايام كمواد عامة لبناء
٩٥ – فرن للجير في السويري
٩٦ – بجانب سور مدينة شبام
٩٧ – بناء المنازل في قسم
٩٨ – ١٠١ – منظر لمدينة شبام من الغرب
١٠٢ – قصر قديم في قسم
١٠٣ – أ : تفصيل باب في شبام
ب : مكان للنساء في سيئون
ج : نقوش محفورة في جبس يحيط بباب أحد القصور بقسم
١٠٤ – أحد طرق شبام الرئيسيه التي تقود الى المسجد الكبير
١٠٥ – بعربات النقل الملونة والمزينة تنقل البضائع من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الى الجمهورية العربية اليمنية
١٠٦ – تأثيرات اجنبية عديدة ، الامتزاج بالاندونيسيين والأفارقة والقبائل العربية المجاورة طبع وجه السكان
أ : بدوي من وادي حضرموت
ب : تلميذة ذات طابع افريقي
ج : فتاة من الجول
د : رجل طاعن في السن من الجول
ه : جزار في سوق شبام
و : حفيدان من أسرة الكاف
١٠٧ – أطفال يلعبون في ظلال المنازل ، القصر القديم في سيئون لا يزال يبين النقوش الجيرية الأصلية للمنافذ
١٠٩/١٠٨ – المساء قرب تريم
١١١/١١٠ – عاصفة رملية تهب على سيئون
١١٢ – ترتفع مئذنة (منارة) مسجد الحضار في تريم ٦٠ مترا ، انها اعلى مئذنة في جنوب شبه الجزيرة العربية . وهي مبنية من الطين كالمسجد
١١٣ – ضريح في الطريق الى تريم
١١٤ – غالبا ما يقوم الأطفال بمراقبة قطعان الماشية
١١٥ – أ : بجانب أشجار النخيل تزرع شجرة جوز الهند في بساتين الغيظه
١١٥ – ب : الاطفال يلعبون في أحواض توزيع المياه لأشجار النخيل
١١٧/١١٦ – أ : الصباح في حدود مدينة تريم
ب : منظر جزئي من شبام من الجانب الجنوبي
١١٨ – في أزقة تريم
١١٩ – أ : سقف تقليدي لمسجد قديم في تريم
ب : وليمة في قصر اسرة الكاف
١١٩ – ج : تقام السقاية في تريم في ارتباط بالمسجد
١١٩ – د : يقام محراب المسجد في اتجاه مكه
١٢٠ – نظرة حول حدائق تريم
١٢١ – تريم ، قصر الكاف ، تعلق قربة الماء في مجرى التيار البارد
١٢٢ – سقف ملون ومصنوع من خشب السنط في أحد ممرات قسم
١٢٣ – أ : قفل خشبي لباب في شبام
ب : باب في شبام
١٢٤ – أ : تفصيل باب في الشحر
ب : نافذة كبيرة بقفل خشبي في الشحر
١٢٤ – ج : زخارف في دعامة الوسط للغرفة الكبيرة في باب مدينة الشحر (سدة العيدروس)
د : صندوق قفول بجانب باب المدخول (سيئون)
١٢٥ – باب كبير مع باب صغير للدخول في منزل بالشحر
١٢٦ – سقاية قديمة في الغرفه مزينة بزخارف تقليديـة في شكل سهم مسنن
١٢٧ – أ : هذه السقاية الكبيرة في سيئون ذات قاعدة من الاحجار الطبيعية

ب : سقاية قديمة مهدمة أمام مسجد في قسم . . .
ج : وأخرى لا تزال تستخدم في الطريق قرب المكلا
١٢٨ – ممرات ضيقة تربط أزقة شبام
١٢٩ – الكثير من نساء حضرموت يلبسن الحجاب
١٣٠ – أمام قصر صغير في سيئون
١٣١ – امرأة تنظف الحبوب من سطح بشبام
١٣٢ – قطعة فنية ترسم على اليد بمادة الحناء
١٣٣ – فستان عروس مطرز ومجوهرات للعروسة في متحف سيئون
١٣٤ – زخارف على الطوب الطيني (المرر) في مقبرة بالغرفه
١٣٥ – مقبرة فيها قبور الأولياء والصالحين في عينات
١٣٦ – أ : في سوق سيئون تسود الحياة التجارية
ب : . . . وكذلك بجانب بوابة مدينة شبام
ج : دردشة قصيرة في الطريق الى شبام
١٣٧ – من خلال بوابة مدينة شبام ينظر المرء الى الوادي
١٣٨ – حصن الشيخ علي الواقع حول واحة تباله مع خرائب المدينة القديمة
١٣٩ – أ – ب : قلعة الصداع ، تهدمت وبنيت مرة ثانية من الطين خرائب شكليزاء
١٤٠ – باستمرار الشوق الى المتعه – شاى ساخن بالنبن والسكر والهيل (الهال)
١٤١ – أ : يجيد شرب الشاى الساخن بالصحن الذى يوضع عليه الكوب
١٤١ – ب : غسل الصحون – الضيوف الجدد قادمون
ج : سمك التونه اللذيذ يحمر بالزيت في مطاعم الشحر
د : يقدم اللحم مع وجبة الطعام
ه : « مطعم الطريق » الواقع بين شبام والقطن
و : الحلويات يحبها الصغار والكبار
١٤٢ – البابان المشهوران بالمدينه ، باب (سدة) العيدروس وباب الخور لا يزالان قائمان حتى اليوم
١٤٣ – أ – د : في المدينة وحولها يعيش الناس على صيد السمك ، يعود الصيادون في بيوتهم بصيد وفير . سمك قرش مجفف (لحم) ، يجب تحسين الشبكة ، والفائض من السمك يجفف على الشاطىء : العيد
١٤٤ – الطريق الجديد المسفلت بين الساحل وحوره في وادى حضرموت
١٤٥ – حصن الغويزى الذى بني عام ١٨٨٤ لحماية الطريق من المكلا الى داخل حضرموت
١٤٦ – ١٤٩ – في مدينة المكلا توجد مساحة صغيرة بين جبال الساحل والبحر

١٥٠/١٥١ – تقع مدينة سيئون في وسط أشجار النخيل
١٥٢ – أحد مساجد تريم الحديثة التى تشير بوضوح الى شكل المساجد في جنوب شرق آسيا
١٥٣ – في هذا الموقع من شاطئ الشحر نزل النزاة البرتغاليون ثم الباحثون الاوروبيون فيما بعد
١٥٤/١٥٥ – الصورة التاريخية للمكلا تبين المسجد بحالته القديمة وميناء سفن الداو وورش الحديدين
١٥٥ – أ – ب : بحسابيب مسجد الروضه تتم الحدادة ، اجزاء حديدية صغيرة من بينها مسامير لألواح بسفن الداو
١٥٥ – ج : لا تزال تستخدم في ذلك الطريقة التقليدية بالمنفاخ المصنوع من جلد الماعز
١٥٦ – قوارب على شاطئ المكلا – الشرج
١٥٧ – أ – ب – ج : بناء القوارب في الشحر بالمثقاب حيث يتم ضم وربط اجزاء الالواح
د : في داخل سفينة الداو توجد آلة الديزل
١٥٨ – على هذه السفينه القديمة نلاحظ جيدا الألواح وثقوب المسامير
١٥٩ – هذا البحار اليمنى لا يمكنه نكران اصله الافريقي
١٦٠ – عند جزر أمواج البحر يستطيع عمال هذه السفن الأبحار في خط مستقيم
١٦١ – جمل محمل بالحطب في طريقه الى تريم
١٦٢ – حارس طاعن في السن يقوم بحراسة مناطق البحث عن الآثار في شبوه
١٦٣ – أ : المؤلف لوثار شتاين مع البدو بالقرب من استراحة في رحلة الى بيحان
١٦٣ – ب : عائلة بدوية وصلت الى المخيم الجديد
١٦٤/١٦٥ – البئر القديم في ثمود هو مركز مهم في هذه المنطقة
١٦٦ – أ : بدو عند بئر ثمود
ب : امرأة بدوية شابة من ثمود ترافقها ابنتها
ج : بدو يرقصون
١٦٧ – أ : اطفال يمرحون في مدرسة البدو بثمود
١٦٨ – ب : مجموعة بيوت حديثة البدو المستقرين في ثمود
١٦٩ – نقل البضائع الى سوق سيئون
١٧٠ – أ – ب : هنا يعرض ايضا ملح شبوه الحجرى المحبب العمل شاق في مناجم الملح بشبوه
١٧١ – أ : قطيع من الماعز يروى عطشه عند بئر مكسر
ب : يأخذ البدو ماء الشرب من بئر « أم ديبانه »
ج : دلو (قربه) نملوء بالماء يتم سحبه في لحظة من العمق

١٧٢/١٧٣ – في كل ليلة يجتمع الكثير من ساكنى المكلا على الشاطىء . فعندما تغيب الشمس وراء جبال الشاطىء القريبة من بروم تهب ريح منعشة

١٧٤ – الحياة الجديدة في البيوت القديمة

١٧٥ – تجار لطفاء في سوق حتق

١٧٦ – المسجد المطلى بالبياض في واحة تباله

عناوين لنصوص الرسوم

(١) خاتم اصبح ذو أجراس

(٢) زخرفة لباب منزل

(٣) قفل خشبي عربى جنوبى

(٤) جامبياس وفي اليمين الطراز الحضرمى

(٥) انواع السروج – شمالا المركوب على السنام ويمينا المركوب على مؤخرة الجمل

(٦) شق في بيت عام من الطين في الجنوب العربى

(٧) شق في الوادى

(٨) انواع من سفن الداو ، في الاعلى السمبوق وفي الاسفل بجالا وإداة حرفية ، مثقاب في الأعلى ومثقاب يدوى في الأسفل

(٩) تخطيط لمدينة شبام
المقياس ١ : ٢٥٠٠

(١٠) علامة اصلية في باب (سدة) المخور بالشحر